١ التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الرابع

من تفسير سورة يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تفسير

سُورَة يُوسُف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ

---

* يخبر تعالى ، أن آيات القرآن هي [آيات الكتاب المبين] أي : البين الواضحة ألفاظه ، ومعانيه .

ومن بيانه وإيضاحه ، أنه أنزله باللسان العربي ، أشرف الألسنة ، وأبينها .

المبين ، لكل ما يحتاجه الناس ، من الحقائق النافعة .

وكل هذا الإيضاح والتبيين [لعلكم تعقلون] أي : لتعقلوا حدوده ، وأصوله ، وفروعه ، وأوامره ، ونواهيه .

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم ، واتصفت قلوبكم بمعرفتها ، أثمر ذلك ، عمل الجوارح ، والانقياد إليه .

و [لعلكم تعقلون] أي : تزداد عقولكم ، بتكرر المعاني الشريفة العالية ، على أذهانكم .

قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

فتنتقلون من حال إلى أحوال ، أعلى منها وأكمل .

[نحن نقص عليك أحسن القصص] وذلك لصدقه ، وسلاسة عبارته ، ورونق معانيه .

[بما أوحينا إليك هذا القرآن] أى : بما اشتمل عليه هذا القرآن ، الذي أوحيناه إليك ، وفضلناك به على سائر الأنبياء ، وذاك محض مِنَّةٍ ، من الله وإحسان .

[وإن كنت من قبله لمن الغافلين] أى: ما كنت تدرى، ماالكتاب، ولا الإيمان ، قبل أن يوحى الله إليك ، ولكن جعلناه نوراً ، نهدى به من نشاء ، من عبادنا .

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن ، من القصص ، وأنه أحسن القصص على الإطلاق ، فلا يوجد من القصص ، فى شىء من الكتب ، مثل هذا القرآن ، ذكر قصة يوسف ، وأبيه ، وإخوته ، القصة العجيبة الحسنة .

فقال : (إذ قال يوسف) إلى (إن ربك عليم حكيم) .

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله ، أحسن القصص فى هذا الكتاب .

ثم ذكر هذه القصة ، وبسطها ، وذكر ما جرى فيها ، فعلم بذلك ، أنها قصة تامة ، كاملة حسنة .

فمن أراد أن يكملها أو يحسنها ، بما يذكر فى الإسرائيليات ، التى لا يعرف لها سند ، ولا ناقل ، وأغلبها كذب ، فهو مستدرك على الله ، ومكمل لشيء ، يزعم أنه ناقص .

وحسبك بأمر ينتهى إلى هذا الحد قبحاً ، فإن تضاعيف هذه السورة ، قد ملئت فى كثير من التفاسير ، من الأكاذيب ، والأمور الشنيعة المناقضة ، لما قصه الله تعالى بشيء كثير .

فعلى العبد أن يفهم عن الله ، ما قصه ، ويدع ، ما سوى ذلك ، مما ليس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ينقل .

فقوله تعالى : [إذ قال يوسف لأبيه] يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، عليهم الصلاة والسلام :

[يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين] .

فكانت هذه الرؤيا ، مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام ، من الارتفاع فى الدنيا والآخرة .

لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأصول العظام ، قدم بين يديه مقدمة ، توطئة له ، وتسهيلا لأمره ، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق ، ولطفاً بعبده ، وإحساناً إليه .

فأوَّلها يعقوب ، بأن الشمس : أمه ، والقمر أبوه ، والكواكب ، إخوته .

وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ، ويسجدون له ، إكراماً وإعظاماً .

وأن ذلك لا يكون ، إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له ، واصطفائه إياه ، وإتمام نعمته عليه ، بالعلم والعمل ، والتمكين فى الأرض .

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب ، الذين سجدوا له ، وصاروا تبعاً له فيها .

ولهذا قال : [وكذلك يجتبيك ربك] أى : يصطفيك ويختارك بما مَنَّ به عليك من الأوصاف الجليلة ، والمناقب الجميلة .

[ويعلمك من تأويل الأحاديث] أى : من تعبير الرؤيا ، وبيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة ، كالكتب السماوية ونحوها .

[ويتم نعمته عليك] فى الدنيا والآخرة ، بأن يؤتيك فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة .

أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

[كما أتمها على أبويك من قبل ، إبراهيم ، وإسحق] حيث أنعم الله عليهما ، بنِعَمٍ عظيمة واسعة ، دينية ، ودنيوية .

[إن ربك عليم حكيم] أي : علمه محيط بالأشياء ، وبما احتوت عليه، ضمائر العباد ، من البر وغيره .

فيعطي كلاًّ ، ما تقتضيه حكمته وحمده ، فإنه حكيم ، يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

ولما تم تعبيرها ليوسف ، قال له أبوه : [يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا] أى : حسداً من عند أنفسهم ، بأن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم .

[إن الشيطان للإنسان عدو مبين] لا يفتر عنه ، ليلا ولا نهاراً ، ولا سراً ، ولا جهاراً .

فالبعد عن الأسباب ، التي يتسلط بها على العبد ، أولى .

فامتثل يوسف أمر أبيه ، ولم يخبر إخوته بذلك ، بل كتمها عنهم .

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ

---

* يقول تعالى : [لقد كان فى يوسف وإخوته آيات] أى عِبَرٌ وأدلة ، على كثير من المطالب الحسنة .

[للسائلين] أى : لكل من سأل عنها ، بلسان الحال ، أو بلسان المقال.

فإن السائلين ، هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر .

وأما المعرضون ، فلا ينتفعون بالآيات ، ولا بالقصص ، والبينات .

[إذ قالوا] فيما بينهم : [ليوسف وأخوه] بنيامين ، أى : شقيقه ، وإلا ، فكلهم إخوة .

[أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة] أى : جماعة ، فكيف يفضلهما بالمحبة والشفقة .

[إن أبانا لفى ضلال مبين] أى : لفى خطأ بَيِّنٍ ، حيث فضلهما علينا، من غير موجب نراه ، ولا أمر نشاهده .

[اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا] أى : غيبوه عن أبيه ، فى أرض بعيدة، لا يتمكن من رؤيته فيها .

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين [يخل لكم وجه أبيكم] .
أى : يتفرغ لكم ، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة ، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف ، شغلا ، لا يتفرغ لكم .

وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

[وتكونوا من بعده] أى : من بعد هذا الصنيع [قوما صالحين] أى : تتوبون إلى الله ، وتستغفرونه من بعد ذنبكم .

فقدموا العزم على التوبة ، قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله ، وإزالة لشناعته ، وتنشيطاً من بعضهم لبعض .

* أى : [قال قائل] من إخوة يوسف ، الذين أرادوا قتله ، أو تبعيده : [لا تقتلو يوسف] فإن قتله أعظم إثماً ، وأشنع .

والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه ، من غير قتل ، ولكن توصلوا إلى تبعيده بأن تلقوه [فى غيابة الجب] وتتوعدوه ، على أنه لا يخبر بشأنكم ، بل على أنه عبد مملوك آبق ، لأجل أن [يلتقطه بعض السيارة] الذين يريدون مكاناً بعيداً ، فيحتفظوا فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأيا فى يوسف ، وأبرهم ، وأتقاهم فى هذه القضية .

فإن بعض الشر ، أهون من بعض ، والضرر الخفيف ، يدفع به الضرر الثقيل .

فلما اتفقوا على هذا الرأى (قالوا يا أبانا) إلى قوله (إنا إذاً لخاسرون).

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ

---

* أى : قال إخوة يوسف ، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم :

[ياأبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون] أى : لأى شىء يدخلك الخوف منا ، على يوسف ، من غير سبب ، ولا موجب ؟

[و] الحال [إنا له لناصحون] أى: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا.

وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام ، لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها .

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة ، لعدم إرساله معهم ، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه ، الذى يحبه أبوه له ، ما يقتضى أن يسمح بإرساله معهم ، فقالوا :

[أرسله معنا غداً يرتع ويلعب] أى : يتنزه فى البرية ويستأنس .

[وإنا له لحافظون] أى سنراعيه ، ونحفظه من كل أذى يريده .

فأجابهم بقوله : [إنى ليحزننى أن تذهبوا به] أى مجرد ذهابكم به ، يحزننى ، ويشق عَلَىَّ ، لأننى لا أقدر على فراقه ، ولو مدة يسيرة .

فهذا مانع من إرساله [و] مانع ثان ، وهو : أنى [أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون] أى : فى حال غفلتكم عنه ، لأنه صغير ، لا يمتنع من الذئب .

ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

[قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة] أى : جماعة ، حريصون على حفظه .

[إنا إذاً لخاسرون] أى : لا خير فينا ، ولا نفع يرجى منا ، إن أكله الذئب ، وغلبنا عليه .

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله ، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم ، لأجل أنسه .

* أى : لما ذهب إخوة يوسف ، بعد ما أذن له أبوه ، وعزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، كما قال قائلهم ، السابق ذكره ، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه ، فنفذوا فيه قدرتهم ، وألقوه فى الجب .

ثم إن الله ، لطف به ، بأن أوحى إليه وهو بتلك الحال الحرجة .

[لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون] أى : سيكون منك معاتبة لهم ، وإخبار عن أمرهم هذا ، وهم لا يشعرون بذلك الأمر .

ففيه بشارة له ، بأنه سينجو مما وقع فيه ، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته ، على وجه العز والتمكين له ، فى الأرض .

وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

[وجاءوا أباهم عشاء يبكون] ليكون إتيانهم ، متأخراً عن عادتهم ، وبكاؤهم دليلاً لهم ، وقرينة على صدقهم .

فقالوا — معتذرين بعذر كاذب — [يا أبانا إنا ذهبنا نستبق] إما على الأقدام ، أو بالرمى والنضال .

[وتركنا يوسف عند متاعنا] توفيرا له وراحة .

[فأكله الذئب] فى حال غيابنا عنه واستباقنا .

[وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين] أى : اعتذرنا بهذا العذر ، والظاهر أنك لاتصدقنا ، لما فى قلبك من الحزن على يوسف ، والرقة الشديدة عليه .

ولكن عدم تصديقك إيانا ، لايمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقى ، وكل هذا ، تأكيد لعذرهم .

[و] مما أكدوا به قولهم ، أنهم [جاءوا على قميصه بدم كذب] زعموا ، أنه دم يوسف ، حين أكله الذئب ، فلم يصدقهم أبوهم بذلك .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

و [قال] : [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] أى : زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحا فى التفريق بينى وبينه ، لأنه رأى من القرائن والأحوال ، ومن رؤيا يوسف ، التى قصها عليه ، ما دله على ما قال .

[فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون] أى : أما أنا ، فوظيفتى سأحرص على القيام بها ، وهى أنى أصبر على هذه المحنة ، صبرا جميلا ، سالمًا من السخط والتَّشكِّى إلى الخلق ، وأستعين الله على ذلك ، لا على حولى وقوتى .

فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه فى قوله : [إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله] لأن الشكوى إلى الخالق ، لا تنافى الصبر الجميل ، لأن النبي ، إذا وعد ، وفى .

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

---

* أى : مكث يوسف فى الجب ، ما مكث ، حتى [جاءت سيارة] أى : قافلة تريد مصر .

[فأرسلوا واردهم] أى . فرطهم ومقدمهم ، الذى يعس لهم المياه ، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك .

[فأدلى] ذلك الوارد [دلوه] فتعلق فيه يوسف عليه السلام ، وخرج .

[قال ، يا بشرى هذا غلام] أى : استبشر وقال : هذا غلام نفيس .

[وأسروه بضاعة] وكان إخوته قريباً منه ، فاشتراه السيارة منهم .

[بثمن بخس] أى . قليل جداً ، فسره بقوله: [دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين] .

لأنه لم يكن لهم قصد ، إلا تغييبه ، وإبعاده عن أبيه ، ولم يكن لهم قصد فى أخذ ثمنه .

والمعنى فى هذا : أن السيارة ، لما وجدوه ، عزموا أن يُسِرُّوا أمره ، ويجعلوه من جملة بضائعهم ، التى معهم ، حتى جاءهم إخوته ، فزعموا أنه عبد أبق منهم .

فاشتروه منهم ، بذلك الثمن ، واستوثقوا منهم فيه ، لئلا يهرب .

والله أعلم .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* أى لما ذهب به السيارة إلى مصر ، وباعوه بها ، فاشتراه عزيز مصر .

فلما اشتراه ، أعجب به ، ووصى عليه امرأته وقال :

[أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً] أى : إما ان ينفعنا كنفع العبيد ، بأنواع الخدم .

وإما أن نستمتع فيه ، استمتاعنا بأولادنا ، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد .

[وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض] أى: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر ، ويكرمه هذا الإكرام ، جعلنا هذا ، مقدمة لتمكينه فى الأرض ، من هذا الطريق .

[ولنعلمه من تأويل الأحاديث] إذا بقى لا شغل له ولا همّ سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علما كثيراً ، من علم الأحكام ، وعلم التعبير ، وغير ذلك .

[والله غالب على أمره] أى : أمره تعالى نافذ ، لا يبطله مبطل ، ولا يغلبه مغالب .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] . فلذلك يجرى منهم ، ويصدر ، فى مغالبة أحكام الله القدرية ، وهم أعجز ، وأضعف من ذلك .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ

---

* أي : [لما بلغ] يوسف [أشده] أي : كمال قوته المعنوية والحسية ، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة ، من النبوة ، والرسالة .

[آتيناه حكما وعلما] أي : جعلناه نبيا رسولا ، وعالما ربانيا .

[وكذلك نجزى المحسنين] في عبادة الخالق ، ببذل الجهد والنصح فيها ، وإلى عباد الله ، ببذل النفع والإحسان إليهم ، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم ، علماً نافعا .

ودل هذا ، على أن يوسف فى مقام الإحسان ، فأعطاه الله الحكم بين الناس ، والعلم الكثير والنبوة .

* هذه المحنة العظيمة ، أعظم على يوسف ، من محنة إخوته ، وصبره عليها ، أعظم أجراً ، لأنه صبر اختيار ، مع وجود الدواعى الكثيرة ، لوقوع الفعل ، فقدم محبة الله عليها .

وأما محنته بإخوته ، فصبره صبر اضطرار ، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها ، طائعا أو كارها .

وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ، بقى مكرماً فى بيت العزيز .

وكان له من الجمال ، والكمال ، والبهاء ، ما أوجب ذلك ، أن [راودته التى هو فى بيتها عن نفسه] أي : هو غلامها ، وتدبيرها ، والمسكن واحد ، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه ، من غير شعور أحد ، ولا إحساس بشر .

ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ

[و] زادت المصيبة ، بأن [غلقت الأبواب] وصار المحل خاليا ، وهما آمنان من دخول أحد عليهما ، بسبب تغليق الأبواب .

وقد دعته إلى نفسها [وقالت : هيت لك] أى : افعل الأمر المكروه وَأَقْبِلْ إِلَىَّ .

ومع هذا ، فهو غريب ، لا يحتشم مثله ، مايحتشمه إذا كان فى وطنه وبين معارفه .

وهو أسير تحت يدها ، وهى سيدته ، وفيها من الجمال ، ما يدعو إلى ما هنالك .

وهو شاب عزب ، وقد توعدته ، إن لم يفعل ما تأمره به ، بالسجن ، أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله ، مع وجود الداعى القوى فيه ، لأنه قد هم فيها هما ، تركه لله ، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء .

ورأى من برهان ربه — وهو مامعه من العلم والإيمان ، الموجب لترك كل ماحرم الله — ما [١] أوجب له البعد والانكفاف ، عن هذه المعصية الكبيرة .

[قال . معاذ الله] أى . أعوذ بالله ، أن أفعل هذا الفعل القبيح ، لأنه مما يسخط الله ، ويبعد عنه ، ولأنه خيانة فى حق سيدى ، الذى أكرم مثواى .

---

(١) قوله (ما) مفعول به لـ (رأى) .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا

فلا يليق بى ، أن أقابله فى أهله ، بأقبح مقابلة ، وهذا من أعظم الظلم والظالم لا يفلح .

والحاصل أنه جعل الموانع له من هـذا الفعل ، تقوى الله ، ومراعاة حق سيده ، الذى أكرمه ، وصيانة نفسه عن الظلم ، الذى لا يفلح من تعاطاه .

وكذلك ما من الله عليه ، من برهان الإيمان ، الذى فى قلبه ، يقتضى منه ، امتثال الأوامر ، واجتناب الزواجر .

والجامع لذلك كله . أن الله صرف عنه السوء والفحشاء ، لأنه من عباده المخلصين له ،فى عباداتهم ، الذين أخلصهم الله ، واختارهم ،واختصهم لنفسه ، وأسدى عليهم من النعم ، وصرف عنهم المكاره ، ما كانوا به من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها ، بعد المراودة الشديدة ، وذهب ليهرب عنها ، ويبادر إلى الخروج من الباب ، ليتخلص ، ويهرب من الفتنة .

فبادرت إليه ،وتعلقت بثوبه ، فشقت قميصه .

فلما وصلا إلى الباب ،فى تلك الحال ، ألفيا سيدها ، أى . زوجها لدى الباب ، فرأى أمراً شق عليه .

فبادرت إلى الكذب ، وادعت أن المراودة ، قد كانت من يوسف ، وقالت :

سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ

[ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً] ولم تقل « من فعل بأهلك سوءاً » تبرئة لها ، وتبرئة له أيضاً ، من الفعل .

وإنما النزاع عن الإرادة ، والمراوده .

[إلا أن يسجن أو عذاب أليم] أى : أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه ، مما رمته به ، و قال : [هى راودتنى عن نفسى] فحينئذ احتملت الحال ، صدق كل واحد منهما ، ولم يعلم أيهما .

ولـكن الله تعالى ، جعل للحق والصدق ، علامات ، وأمارات تدل عليه ، قد يعلمها العباد ، وقد لايعلمونها .

فمنَّ الله فى هذه القضية ، بمعرفة الصادق منهما ، تبرئة لنبيه وصفيه ، يوسف عليه السلام .

فبعث شاهدا من أهل بيتها ، يشهد بقرينة من وجدت معه ، فهو الصادق ، فقال :

[إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الـكاذبين] لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها ، المراود لها ، المعالج ، وأنها أرادت أن تدفعه عنها ، فشقت قميصه من هذا الجانب .

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

[وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين] لأن ذلك ، يدل على هروبه منها ، وأنها هى التى طلبته ، فشقت قميصه من هذا الجانب .

[فلما رأى قميصه قد من دبر] عرف بذلك صدق يوسف وبراءته ، وأنها هى الكاذبة .

فقال لها سيدها : [إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم] وهل أعظم من هذا الكيد ، الذى برأت به نفسها ، لما أرادت وفعلت ، ورمت به نبى الله ، يوسف عليه السلام .

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر ، قال ليوسف : [يوسف أعرض عن هذا] .

أى : اترك الكلام فيه ، وتناسه ، ولاتذكره لأحد ، طلباً للستر على أهله .

[واستغفرى] أيتها المرأة [لذنبك إنك كنت من الخاطئين] فأمر يوسف بالإعراض ، وأمرها بالاستغفار والتوبة .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ

يعنى : أن الخبر اشتهر وشاع فى البلد ، وتحدث به النسوة ، فجعلن يلمنها ، ويقلن :

[امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً] أى : هذا أمر مستقبح ، هى امرأة كبيرة القدر ، وزوجها كبير القدر ، ومع هذا ، لم تزل تراود فتاها ، الذى تحت يدها ، وفى خدمتها — عن نفسه .

ومع هذا فإن حبه ، قد بلغ من قلبها ، مبلغاً عظيما .

[قد شغفها حباً] ، أي : وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو : باطنه وسويداؤه .

وهذا أعظم مايكون من الحب .

[إنا لنراها فى ضلال مبين] حيث وجدت منها هذه الحالة ، التى لا ينبغى منها ، وهى حالة تحط قدرها ، وتضعه عند الناس .

وكان هـذا القول منهن مكراً ، ليس المقصود به ، مجرد اللوم لهـا ، والقدح فيها .

وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام ، إلى رؤية يوسف ، الذى فتنت به امرأة العزيز ، لتحنق امرأة العزيز ، وتريهن إياه ، ليعذرنها ولهذا سماه : مكراً ، فقال :

[فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن] تدعوهن إلى منزلها للضيافة .

وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

[وأعتدت لهن متكأ] أى : محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد ، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة ، وكان فى جملة ما أتت به وأحضرته ، فى تلك الضيافة ، طعام يحتاج إلى سكين ، إما أترج ، أو غيره .

[وآتت[1] كل واحدة منهن سكيناً] ليقطعن بها ذلك الطعام [وقالت] ليوسف :

[اخرج عليهن] فى حالة جماله وبهائه .

[فلما رأينه أكبرنه] أى : أعظمنه فى صدورهن ، ورأين منظراً فائقاً ، لم يشاهدن مثله .

[وقطعن] من الدهش [أيديهن] بتلك السكاكين ، اللاتى معهن .

[وقلن:حاش لله] أى تنزيهاً لله [ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم].

وذلك أن يوسف ، أُعْطِىَ من الجمال الفائق ، والنور ، والبهاء ، ما كان به آية للناظرين ، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر ، وأعجبهن غاية العجب ، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز ، شىء كثير — أرادت أن تريهن جماله الباطن ، بالعفة التامة — فقالت — معلنة لذلك ، ومبينة لحبه الشديد ، غير مبالية ، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة :

---

(١) أى : أعطت .

نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾

[فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم] أى: امتنع وهى مقيمة على مراودته ، لم تزدها مرور الأوقات ، إلا قلقا ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقا .

ولهذا قالت له بحضرتهن : [ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين] .

لتلجئه بهذا الوعيد ، إلى حصول مقصودها منه .

فعند ذلك ، اعتصم يوسف بربه ، واستعان به على كيدهن و [قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه] وهذا يدل ، أن النسوة ، جعلن يشرن على يوسف فى مطاوعة سيدته ، وجعلن يكدنه فى ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوى ، على لذة حاضرة ، توجب العذاب الشديد .

[وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن] أى : أمل إليهن ، فإنى ضعيف عاجز .

إن لم تدفع عنى السوء ، صبوت إليهن [وأكن من الجاهلين] فإن هذا جهل .

لأنه آثر لذة قليلة منغصة ، على لذات متتابعات ، وشهوات متنوعات ، فى جنات النعيم .

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

ومن آثر هذا ، على هذا ، فمن أجهل منه ؟ ! ! فإن العلم والعقل ، يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين ، وأعظم اللذتين ، ويؤثر ، ما كان محمود العاقبة .

[فاستجاب له ربه] حين دعاه [فصرف عنه كيدهن] فلم تزل تراوده وتستعين عليه ، بما تقدر عليه من الوسائل ، حتى آيسها ، وصرف الله عنه كيدها .

[إنه هو السميع] لدعاء الداعى [العليم] بنيته الصالحة ، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه .

فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة ، والمحنة الشديدة .

وأما أسياده ، فإنه لما اشتهر الخبر وبان ، وصار الناس فيها ، بين عاذر ، ولائم ، وقادح .

[بدا لهم] أى : ظهر لهم [من بعد ما رأوا الآيات] الدالة على براءته .

[ليسجننه حتى حين] أى : لينقطع بذلك ، الخبر ، ويتناساه الناس .

فإن الشىء إذا شاع ، لم يزل يذكر ، ويشيع ، مع وجود أسبابه ، فإذا عدمت أسبابه نُسِىَ .

فرأوا أن هذا مصلحة لهم ، فأدخلوه فى السجن .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن

---

* أى [و] لما دخل يوسف السجن ، كان من جملة من [دخل معه السجن فتيان] أى : شابان ، فرأى كل واحد منهما رؤيا ، فقصها على يوسف ليعبرها .

[قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا] وذلك الخبز [تأكل الطير منه] .

[نبئنا بتأويله] أى : بتفسيره ، وما يئول إليه أمره .

وقولهما : [إنا نراك من المحسنين] أى : من أهل الإحسان إلى الخلق فأحسن إلينا فى تعبيرك لرؤيانا ، كما أحسنت إلى غيرنا ، فتوسلا ليوسف بإحسانه .

[قال] لهما مجيبا لطلبهما : [لا يأتيكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما] أى : فلتطمئن قلوبكما ، فإنى سأبادر إلى تعبير رؤياكما ، فلا يأتيكما غداؤكما ، أو عشاؤكما ، أول ما يجىء إليكما ، إلا نبأتكما بتأويله ، قبل أن يأتيكما .

ولعل يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، قصد أن يدعوهما إلى الإيمان فى هذه الحال ، التى بدت حاجتهما إليه ، ليكون أنجع لدعوته ، وأقبل لهما .

يَٰأتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

ثم قال : [ذلكما] التعبير الذى سأعبره لكما [مما علمني ربى] .

أى : هذا من علم الله علمنيه ، وأحسن إلىَّ به ، وذلك [إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون] .

والترك ، كما يكون للداخل فى شيء ثم ينتقل عنه ، يكون لمن لم يدخل فيه أصلا .

فلا يقال : إن يوسف ، كان من قبل ، على غير ملة إبراهيم .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) ثم فسر تلك الملة بقوله :

(ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) بل نفرد الله بالتوحيد ، ونخلص له الدين والعبادة .

[ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس] أى : هذا من أفضل مِنَّته وإحسانه وفضله علينا ، وعلى من هداه الله كما هدانا ، فإنه لا أفضل من مِنَّة الله على العباد بالإسلام ، والدين القويم .

فمن قبله وانقاد له ، فهو حظه ، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل .

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ

[ولكن أكثر الناس لايشكرون] فلذلك تأتيهم المنة والإحسان ، فلا يقبلونها ، ولا يقومون لله بحق .

وفى هذا ، من الترغيب للطريق ، التى هو عليها ، مالا يخفى .

فإن الفتيين — لما تقرر عنده ، أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال ، وأنه محسن معلم — ذكر لهما أن هذه الحالة ، التى أنا عليها ، كلها من فضل الله وإحسانه ، حيث مَنَّ عَلَيَّ بترك الشرك ، وباتباع ملة آبائى ، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما ، فينبغى لكما أن تسلكا ما سلكت .

ثم صرح لهما بالدعوة فقال : [ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار] أى: أرباب عاجزة ضعيفة ، لاتنفع ولاتضر، ولاتعطى ولاتمنع ، وهى متفرقة ، مابين أشجار ، وأحجار ، وملائكة ، وأموات ، وغير ذلك من أنواع المعبودات ، التى يتخذها المشركون .

أذلك [خير أم الله] الذى له صفات الكمال ، [الواحد] فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله فلا شريك له فى شيء من ذلك .

[القهار] الذى انقادت الأشياء لقهره وسلطانه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

ومن المعلوم ، أن من هذا شأنه ووصفه ، خير من الآلهة المتفرقة ، التى هى مجرد أسماء ، لا كمال لها ، ولا فعال لديها .

ولهذا قال : [ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم]

أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

أي : كسوتموها أسماء ، سميتموها آلهة ، وهي لاشيء ، ولا فيها من صفات الألوهية شيء .

[ما أنزل الله بها من سلطان] بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها .

وإذا لم ينزل الله بها سلطانا ، لم يكن طريق ، ولا وسيلة ، ولا دليل لها .

[إن[1] الحكم إلا لله] وحده ، فهو الذي يأمر وينهى ، ويشرع الشرائع ، ويسن الأحكام .

وهو الذي [أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم] أي : المستقيم الموصل إلى كل خير ، وما سواه من الأديان ، فإنها غير مستقيمة ، بل معوجة ، توصل إلى كل شر .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] حقائق الأشياء .

وإلا فإن الفرق بين عبادة الله ، وحده لاشريك له ، وبين الشرك به، من أظهر الأشياء وأبينها .

---

(١) « إن » حرف نفي . أي : لاحكم إلا لله .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

ولـكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك ، حصل منهم ماحصل ، من الشرك .

فيوسف عليه السلام ، دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له .

فيحتمل أنهما استجابا وانقادا ، فتمت عليهما النعمة .

ويحتمل أنهما ، لم يزالا على شركهما ، فقامت عليهما ـ بذلك ـ الحجة .

ثم إنه ، عليه السلام ، شرع يعبر رؤياهما ، بعد ما وعدهما ذلك .

فقال : [يا صاحبي السجن] إلى [الأمر الذى فيه تستفنيان] .

* [ياصاحبي السجن أما أحدكما] وهو : الذى رأى أنه يعصر خمراً ، فإنه يخرج من السجن [فيسقى ربه خمراً] أى : يسقى سيده ، الذى كان يخدمه خمراً ، وذلك مستلزم لخروجه من السجن .

[وأما الآخر] وهو : الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، تأكل الطير منه .

[فيصلب فتأكل الطير من رأسه] ، فإنه عبر عن الخبز ، الذى تأكله الطير ، بلحم رأسه وشحمه ، وما فيه من المخ ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور ، بل يصلب ، ويجعل فى محل ، تتمكن الطيور من أكله .

ثم أخبرهما بأن هذا التأويل ، الذى تأوله لهما ، أنه لا بد من وقوعه فقال : [قضى الأمر الذى فيه تستفتيان] أى : تسألان عن تعبيره وتفسيره .

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

---

* أى : [وقال] يوسف عليه السلام [للذى ظن أنه ناج منهما] ، وهو: الذى رأى أنه يعصر خمراً : [اذكرنى عند ربك] أى : اذكر له شأنى وقصتى ، لعله يَرِقُّ لى ، فيخرجنى مما أنا فيه .

[فأنساه الشيطان ذكر ربه] أى : فأنسى الشيطان ذلك الناجى، ذكر الله تعالى ، وذكر ما يقرب إليه ، ومن جملة ذلك نسيانه ، ذكر يوسف ، الذى يستحق أن يجازى بأتم الإحسان ، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه .

[فلبث فى السجن بضع سنين] والبضع : من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل : إنه لبث سبع سنين .

ولما أراد الله أن يتم أمره ، ويأذن بإخراج يوسف من السجن ، قدر لذلك سبباً لإخراج يوسف ، وارتفاع شأنه ، وإعلاء قدره ، وهو رؤيا الملك .

۞ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ

---

* لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن ، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة ، التى تأويلها ، يتناول جميع الأمة ، ليكون تأويلها على يد يوسف ، فيظهر من فضله ، ويبين من علمه ، ما يكون له رفعة فى الدارين .

ومن التقادير المناسبة ، أن الملك الذى ترجع إليه أمور الرعية هو الذى رآها ، لارتباط مصالحها به .

وذلك أنه رأى رؤيا ، هالتـه ، فجمع علماء قومه ، وذوى الرأى منهم وقال :

[إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع] أى : سبع من البقرات [عجاف] .

وهذا من العجب ، أن السبع العجاف المزبلات ، اللاتى سقطت قوتهن ، يأكلن السبع السمان ، التى كُنَّ نهاية فى القوة .

[و] رأيت [سبع سنبلات خضر وأخر] أى : يأكلهن سبع سنبلات أُخَر [يابسات] .

[يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى] لأن تعبير الجميع واحد ، وتأويلهن شىء واحد .

[إن كنتم للرؤيا تعبرون] فتحيروا ، ولم يعرفوا لها وجها .

[قالوا : أضغاث أحلام] أى أحلام لا حاصل لها ، ولا لها تأويل .

أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا

وهذا جزم منهم ، بما لا يعلمون ، وتعذر منهم ، بما ليس بعذر .

ثم قالوا : [وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين] أى : لا نعبر إلا الرؤيا .

وأما الأحلام ، التى هى من الشيطان ، أو من حديث النفس ، فإنا لا نعبرها .

فجمعوا بين الجهل والجزم ، بأنها أضغاث أحلام ، والإعجاب بالنفس ، بحيث إنهم لم يقولوا : لا نعلم تأويلها ، وهذا من الأمور ، التى لا تنبغى لأهل الدين والحجا .

وهذا أيضاً ، من لطف الله ، بيوسف عليه السلام .

فإنه لو عبرها ابتداء — قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم ، فيعجزوا عنها — لم يكن لها ذلك الموقع .

ولكن لما عرضها عليهم ، فعجزوا عن الجواب ، وكان الملك مهتما لها ، غاية الاهتمام ، فعبرها يوسف — وقعت[1] عندهم موقعاً عظيما .

وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة ، بالعلم ، بعد أن سألهم ، فلم يعلموا .

ثم سأل آدم ، فعلمهم أسماء كل شيء ، فحصل بذلك ، زيادة فضله .

وكما يظهر فضل ، أفضل خلقه ، محمد صلى الله عليه وسلم فى القيامة ، أن يلهم الله الخلق ، أن يتشفعوا بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى عليهم السلام ، فيعتذرون عنها .

---

(١) قوله « وقعت » جواب لقوله « لما عرضها » .

مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى

ثم يأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها أنا لها » ، فيشفع في جميع الخلق ، وينال ذلك المقام المحمود ، الذى يغبطه به ، الأولون والآخرون .

فسبحان من خفيت ألطافه ، ودقّت فى إيصاله البر والإحسان ، إلى خواص أصفيائه ، وأوليائه .

[وقال الذى نجا منهما] أى : من الفتيين ، وهو : الذى رأى أنه يعصر خمراً ، وهو الذى أوصاه يوسف ، أن يذكره عند ربه [وادّكر بعد أمة] أى: وتذكر يوسف ، وما جرى له فى تعبيره لرؤياهما ، وما وصاه به ، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة ، من السنين فقال :

[أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون] إلى يوسف لأسأله عنها .

فأرسلوه ، فجاء إليه ، ولم يعنفه يوسف على نسيانه ، بل استمع ما يسأله عنه ، وأجابه عن ذلك فقال :

[يوسف أيها الصديق] أى : كثير الصدق فى أقواله وأفعاله .

[أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون] فإنهم متشوفون لتعبيرها ، وقد أهمتهم .

ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي

فعبر يوسف ، السبع البقرات السمان ، والسبع السنبلات الخضر ، بأنهن سبع سين مخصبات ، والسبع البسرات العجاف ، والسبع السنبلات اليابسات ، بأنهن سنين مجدبات .

ولعل وجه ذلك — والله أعلم — أن الخصب والجدب — لما كان الحرث مبنياً عليه ، وأنه إذا حصل الخصب ، قويت الزروع والحروث ، وحسن منظرها ، وكثرت غلالها ، والجدب بالعكس من ذلك .

وكانت البقر ، هى التى تحرث عليها الأرض ، وتسقى عليها الحروث فى الغالب .

والسنبلات ، هى أعظم الأقوات وأفضلها ، عبرها بذلك ، لوجود المناسبة .

فجمع لهم فى تأويلها ، بين التعبير ، والإشارة لما يفعلونه ، ويستعدون به ، من التدابير فى سنى الخصب ، إلى سنى الجدب فقال :

[تزرعون سبع سنين دأبا] أى : متتابعات .

[فما حصدتم] من تلك الزروع [فذروه] أى : اتركوه [فى سنبله] لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه[1] [إلا قليلا مما تأكلون] أى :

---

(١) قوله « وأبعد من الالتفات إليه » لا يخفى ما فى هذا التعبير من الإبهام ، فلو قال : « وأبعد من تسرب ووصول التلف إليه » لكان أوضح وأولى .

=

مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

دبروا أكلكم فى هذه السنين الخصبة ، وليكن قليلا ، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه .

[ثم يأتى من بعد ذلك] أى : بعد تلك السنين السبع المخصبات .

[سبع شداد] أى : مجدبات [يأكلن ما قدمتم لهن] أى : يأكلن جميع ما ادخرتموه ، ولو كان كثيراً .

[إلا قليلا مما تحصنون] أى : تمنعونه من التقديم لهن .

[ثم يأتى من بعد ذلك] أى : السبع الشداد [عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون] أي : فيه تكثر الأمطار والسيول ، وتكثر الغلات ، وتزيد على أقواتهم ، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه ، زيادة على أكلهم.

ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب ، مع أنه غير مصرح به فى رؤيا الملك .

= وقد علق الخبراء على هذه الآية بقولهم: « تتفق هذه الآية مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب فى سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات .

وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة وأن ذلك الإلهام كان لنبي من أنبياء الله ، وهو : يوسف عليه السلام .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ
قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ

لأنه فهم من التعبير ، بالسبع الشداد ، أن العام الذى يليها ، تزول به شدتها .

ومن المعلوم ، أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات ، إلا بعام مخصب جداً ، وإلا لما كان للتقدير فائدة .

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس ، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا ، عجبوا من ذلك ، وفرحوا بها أشد الفرح .

* يقول تعالى : [وقال الملك] لمن عنده [ائتونى به] أى : بيوسف عليه السلام ، بأن يخرجوه من السجن ، ويحضروه إليه .

[فلما جاءه الرسول] وأمره بالحضور عند الملك ، امتنع عن المبادرة إلى الخروج ،حتى تتبين براءته التامة ، وهذا من صبره ،وعقله ورأيه التام.

وحينئذ [قال] للرسول : [ارجع إلى ربك] يعنى به الملك .

[فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن] أى : اسأله ، ما شأنهن وقصتهن ، فإن أمرهن ظاهر متضح [إن ربى بكيدهن عليم] .

فأحضرهن الملك ، وقال : [ما خطبكن] أى : شأنكن [إذ راودتن يوسف عن نفسه] فهل رأيتن منه ما يريب ؟ .

فَبرَّأْنَهُ و [قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء] أي : لا قليل ولا كثير .

عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ

فحينئذ زال السبب ، الذى تبنى عليه التهمة ، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز .

[قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق] أى : تمحص وتبين ، بعد ما كنا ندخل عليه من السوء والتهمة ، ما أوجب له السجن .

[أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين] فى أقواله وبراءته .

[ذلك] الإقرار ، الذى أقررت ، أنى راودت يوسف [ليعلم أنى لم أخنه بالغيب] .

يحتمل أن مرادها بذلك ، زوجها أى : ليعلم أنى حين أقررت ، أنى راودت يوسف ، أنى لم أخنه بالغيب ،أى : لم يَجْرِ منِّى إلا مجرد المراودة ، ولم أفسد عليه فراشه .

ويحتمل أن المراد بذلك ، ليعلم يوسف ، حين أقررت أنى ، أنا الذى راودته ، وأنه صادق ، أنى لم أخنه فى حال غيبته ، عنى .

[وأن الله لا يهدى كيد الخائنين] فإن كل خائن ، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه ، ولا بد أن يتبين أمره .

ثم لما كان فى هذا الكلام ، نوع تزكية لنفسها ، وأنه لم يجر منها ذنب فى شأن يوسف ، استدركت فقالت :

ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

[وما أبرىء نفسى] أى : من المراودة والهمّ ، والحرص الشديد ، والكيد فى ذلك .

[إن النفس لأمارة بالسوء] أى : لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء ، أى: الفاحشة ، وسائر الذنوب ، فإنها مركب الشيطان ، ومنها يدخل على الإنسان [إلا ما رحم ربى] فنجاه من نفسه الأمارة ، حتى صارت نفسه ، مطمئنة إلى ربها ، منقادة لداعى الهدى ، متعاصية عن داعى الردى ، فذلك ليس من النفس ، بل من فضل الله ورحمته بعبده .

[إن ربى غفور] أى : هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصى ، إذا تاب وأناب .

[رحيم] بقبول توبته ، وتوفيقه للأعمال الصالحة .

وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز ، لا من قول يوسف.

فإن السياق فى كلامها ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر .

فلما تحقق الملك والناس ، براءة يوسف التامة ، أرسل إليه الملك وقال :

[ائتونى به أستخلصه لنفسى] أى : أجعله من خلصائى ، ومقرباً لدىّ فأتوه به مكرما محترماً .

[فلما كلمه] أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له :

أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ

[إنك اليوم لدينا] أى : عندنا [مكين أمين] أى : متمكن ، أمين على الأسرار .

[قال] يوسف طلباً للمصلحة العامة : [اجعلنى على خزائن الأرض] أى : على خزائن جبايات الأرض وغلالها ، وكيلا ، حافظاً ، مدبراً .

[إنى حفيظ عليم] أى : حفيظ للذى أتولاه ، فلا يضيع منه شىء فى غير محله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير ، والإعطاء ، والمنع ، والتصرف فى جميع أنواع التصرفات .

وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه فى النفع العام .

وقد عرف من نفسه من الكفاية ، والأمانة ، والحفظ ، مالم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك ، أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على خزائن الأرض ، وولاه إياها .

قال تعالى : [وكذلك] أى بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة .

[مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء] فى عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاه عريض .

[نصيب برحمتنا من نشاء] أى : هذا من رحمة الله بيوسف ، التى أصابه بها ، وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ

[ولا نضيع أجر المحسنين] ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، ولهذا قال:

[ولأجر الآخرة خير] من أجر الدنيا [للذين آمنوا وكانوا يتقون] أى : لمن جمع بين التقوى والإيمان .

فبالتقوى ، تترك الأمور المحرمة ، من كبائر الذنوب وصغائرها .

وبالإيمان التام ، يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

* أى : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن تدبير .

فزرع فى أرض مصر جميعها ، فى السنين المخصبة ، زروعا هائلة ، واتخذ لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة ، شيئاً كثيراً ، وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً .

فلما دخلت السنون المجدبة ، وسرى الجدب ، حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه .

فأرسل يعقوب بنيه ، لأجل الميرة إلى مصر .

[وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون] أى : لم يعرفوه .

مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟

[ولما جهزهم بجهازهم] أى : كال لهم كما كان يكيل لغيرهم .

وكان من تدبيره الحسن ، أنه لا يكيل لكل واحد ، أكثر من حمل بعير .

وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه ، وهو بنيامين .

[قال] لهم : [ائتونى بأخ لكم من أبيكم] ثم رغبهم فى الإتيان به فقال :

[ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين] فى الضيافة والإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : [فإن لم تأتونى به ، فلا كيل لكم عندى ولا تقربون] .

وذلك ، لعلمه باضطرارهم ، إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

[قالوا سنراود عنه أباه] دل هذا على أن يعقوب عليه السلام ، كان مولعاً به ، لا يصبر عنه ، وكان يتسلى به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مراودة فى بعثه معهم [وإنا لفاعلون] لما امرتنا به .

[وقال] يوسف [لفتيانه] الذين فى خدمته : [اجعلوا بضاعتهم] أى : الثمن الذى اشتروا به من الميرة .

بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

[فى رحالهم لعلهم يعرفونها] أى : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك ، فى رحالهم .

[لعلهم يرجعون] لا لأجل التحرج من أخذها على ما قيل .

والظاهر ، أنه أراد أن يرغبهم فى إحسانه إليهم ، بالكيل لهم كيلا وافياً ثم إعادة بضاعتهم إليهم ، على وجه لا يحسون بها،ولا يشعرون لما يأتى ، فإن الإحسان ، يوجب للإنسان ، تمام الوفاء للمحسن .

[فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يأأبانا منع منا الكيل] أى : إن لم ترسل معنا أخانا .

[فأرسل معنا أخانا نكتل] أى : ليكون ذلك سبباً لكيلنا .

ثم التزموا له بحفظه فقالوا : [وإنا له لحافظون] من أن يعرض له ما يكره .

[قال] لهم يعقوب عليه السلام : [هل آمنكم عليه ، إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل] .

أى : تقدم منكم التزام ، أكثر من هذا ، فى حفظ يوسف ، ومع هذا ، فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أثق بالله تعالى .

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ

[فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين] أى : يعلم حالى ، وأرجو أن يرحمنى ، فيحفظه ويرده علىّ ، وكأنه فى هذا الكلام،قدلان لإرساله معهم .

ثم إنهم [لما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم].

هذا دليل ، على أنه قد كان معلوماً عندهم ، أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد ، وأنه أراد أن يملكهم إياها .

[قالوا] لأبيهم - ترغيباً فى إرسال أخيهم معهم - : [يا أبانا ما نبغى] أى : أى شىء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل ، حيث وفّى لنا الكيل ، ورد علينا بضاعتنا ، على الوجه الحسن ، المتضمن للإخلاص ، ومكارم الأخلاق ؟

[هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا] أى : إذا ذهبنا بأخينا ، صار سبباً لكيله لنا ، فنمير أهلنا ، ونأتى لهم ، بما هم مضطرون إليه من القوت.

[ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير] بإرساله معنا ، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير .

[ذلك كيل يسير] أى : سهل ، لا ينالك منه ضرر ، لأن المدة لا تطول ، والمصلحة قد تبينت .

يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ

[قال] لهم يعقوب : [لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله] أى : عهداً ثقيلا ، وتحلفون بالله [لتأتنني به إلا أن يحاط بكم] أى : إلا أن يأتيكم أمر ، لا قِبَلَ لكم به ، ولا تقدرون دفعه .

[فلما آتوه موثقهم] على ما قال وأراد [قال : الله على ما نقول وكيل] أى تكفينا شهادته علينا ، وحفظه وكفالته .

ثم لما أرسله معهم ، وصاهم ، إذا هم قدموا مصر ، أن [لا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة] وذلك لأنه خاف عليهم العين ، لكثرتهم وبهاء منظرهم ، لكونهم أبناء رجل واحد ، وهذا سبب .

[و] إلا [ما أغني عنكم من الله شيئاً] فالقدر ، لا بد أن يكون .

[إن الحكم إلا لله] أى القضاء ، قضاؤه ، والأمر أمره .

فما قضاه وحكم به ، لابد أن يقع .

[عليه توكلت] أى : اعتمدت على الله ، لا على ما وصيتكم به من السبب .

[وعليه فليتوكل المتوكلون] فإن بالتوكل ، يحصل كل مطلوب ، ويندفع كل مرهوب .

[ولما] ذهبوا و [دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان] ذلك الفعل [يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها] وهو موجب الشفقة ، والمحبة للأولاد ، فحصل له فى ذلك ، نوع طمأنينة ، وقضاء لما فى خاطره .

وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ

وليس هذا قصوراً فى علمه ، فإنه من الرسل الكرام ، والعلماء الربانيين .

ولهذا قال عنه : [وإنه لذو علم] أى : لصاحب علم عظيم [لما علمناه] أى : لتعليمنا إياه ، لا بحوله وقوته أدركه ، بل بفضل الله وتعليمه .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] عواقب الأمور ، ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم ، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ، ولوازمه شيء كثير .

* أى : لما دخل إخوة يوسف على يوسف [آوى إليه أخاه] أى : شقيقه وهو « بنيامين » الذى أمرهم بالإتيان به ، وضمه إليه ، واختصه من بين إخوته ، وأخبره بحقيقة الحال .

[قال : إنى أنا أخوك فلا تبتئس] أى: لا تحزن [بما كانوا يعملون] فإن العاقبة خير لنا . ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهى الأمر .

أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ

[فلما جهزهم بجهازهم] أى : كال لكل واحد من إخوته ، ومن جملتهم أخوه هذا .

[جعل السقاية] وهو : الإناء الذى يشرب به ، ويكال فيه [فى رحل أخيه ثم] أوعوا متاعهم .

فلما انطلقوا ذاهبين ،[أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون] .

ولعل هذا المؤذن ، لم يعلم بحقيقة الحال .

[قالوا]أى : إخوة يوسف [وأقبلوا عليهم] لإبعاد التهمة .

فإن السارق ، ليس له هَمٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه ، لتسلم له سرقته .

وهؤلاء ، جاءوا مقبلين إليهم ، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة ، التى رموا بها عنهم .

فقالوا فى هذه الحال : [ماذا تفقدون] ولم يقولوا « ما الذى سرقنا » لجزمهم بأنهم برآء من السرقة .

[قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير] أى : أجرة له ، على وجدانه [وأنا به زعيم] أى : كفيل ، وهذا يقوله المتفقد .

زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن

[قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض] بجميع أنواع المعاصى .

[وما كنا سارقين] فإن السرقة ، من أكبر أنواع الفساد فى الأرض .

وإنما أقسموا على علمهم ، أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين ، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم ، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم ، وهذا أبلغ فى نفى التهمة ، من أن لو قالوا : « تالله لم نفسد فى الأرض ولم نسرق » .

[قالوا فما جزاؤه] أى : جزاء هذا الفعل [إن كنتم كاذبين] بأن كان معكم ؟

[قالوا جزاؤه من وجد فى رحله ، فهو] أى الموجود فى رحله [جزاؤه] بأن يتملكه صاحب السرقة .

وكان هذا فى دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة ، كان ملكا لصاحب المال المسروق ، ولهذا قالوا : [كذلك نجزي الظالمين] .

[فبدأ] المفتش [بأوعيتهم قبل وعاء أخيه] وذلك لتزول الريبة التى يظن أنها فعلت بالقصد .

[ثم] لما لم يجد فى أوعيتهم شيئاً [استخرجها من وعاء أخيه] ولم يقل « وجدها ، أو سرقها أخوه » مراعاة للحقيقة الواقعة .

وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده ، على وجه لا يشعر به إخوته .

قال تعالى: [كذلك كدنا ليوسف] أى: يسّرْنا له هذا الكيد، الذى توصل به إلى أمر غير مذموم [ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك] لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق ، وإنما له عندهم ، جزاء آخر .

فلو ردت الحكومة إلى دين الملك ، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده .

ولكنه جعل الحكم منهم ، ليتم له ما أراد .

قال تعالى [نرفع درجات من نشاء] بالعلم النافع ، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها ، كما رفعنا درجات يوسف .

[وفوق كل ذى علم عليم] فكل عالم ، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهى العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا [قالوا إن يسرق] هذا الأخ ، فليس هذا غريباً عنه .

[فقد سرق أخ له من قبل] يعنون : يوسف عليه السلام .

ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه ، وقد يصدر منهم ما يصدر من السرقة ، وهما ليسا شقيقين لنا .

فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

وفى هذا من الغض عليهما ، ما فيه ، ولهذا : أسرها يوسف فى نفسه [ولم يبدها لهم] أى لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ، بل كظم الغيظ ، وأسرَّ الأمر فى نفسه .

و[قال] فى نفسه [أنتم شر مكاناً] حيث ذممتمونا بما أنتم على أشر منه .

[والله أعلم بما تصفون] منا، من وصفنا بالسرقة ، يعلم الله أنا برآء منها.

ثم سلكوا معه ، مسلك التملق ، لعله يسمح لهم بأخيهم .

[قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً] أى : وإنه لا يصبر عنه ، وسيشق عليه فراقه .

[نخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين] فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك.

[قال] يوسف [معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده] أى : هذا ظلم منا ، لو أخذنا البرىء ، بذنب من وجدنا متاعنا عنده ، ولم يقل « من سرق » كل هذا تحرز من الكذب .

[إنا إذاً] أى : إن أخذنا غير من وجد فى رحله [لظالمون] حيث وضعنا العقوبة فى غير موضعها .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا

أي : فلما استيأس[1] إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم [خلصوا نجياً] أي : اجتمعوا وحدهم ، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم .

[قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله] فى حفظه ، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم [ومن قبل ما فرطتم فى يوسف] .

فاجتمع عليكم الأمران ، تفريطكم السابق فى يوسف ، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق ، فليس لى وجه أواجه به أبى .

[فلن أبرح الأرض] أى : سأقيم فى هذه الأرض ، ولا أزال بها [حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى] أى : يقدر لى المجىء وحدى ، أو مع أخى [وهو خير الحاكمين] .

ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم فقال :

[ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق] أى : وأُخِذَ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به ، مع ما بذلنا من الجهد فى ذلك .

---

(١) أي : فلما انقطع منهم الأمل ، ويئسوا من قبول الرجاء

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ

والحال ، أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه ، وإنما شهدنا بما علمنا ، لأننا رأينا الصواع ، استخرج من رحله .

[وما كنا للغيب حافظين] أى : لو كنا نعلم الغيب ، لما حرصنا ، وبذلنا المجهود فى ذهابه معنا ، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا ، فلم نظن أن الأمر . سيبلغ ما بلغ .

[واسئل] إن شككت فى قولنا [القرية التى كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها] فقد اطلعوا على ما أخبرناك به [وإنا لصادقون] لم نكذب ، ولم نغير ، ولم نبدل ، بل هذا الواقع .

فلما رجعوا إلى أبيهم ، وأخبروه بهذا الخبر ، اشتد حزنه ، وتضاعف كمده ، واتهمهم أيضاً فى هذه القضية ، كما اتهمهم فى الأولى .

و [قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل] أى : ألجأ فى ذلك ، إلى الصبر الجميل ، الذى لا يصحبه تسخط ، ولا جزع ، ولا شكوى للخلق .

ثم لجأ إلى حصول الفرج ، لما رأى أن الأمر اشتد ، والكربة انتهت فقال :

[عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً] أى : يوسف و «بنيامين» ، وأخوهم الكبير ، الذى أقام فى مصر .

ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

[إنه هو العليم] الذى يعلم حالى ، واحتياجى إلى تفريجه ومِنَّته ، واضطرارى إلى إحسانه .

[الحكيم] الذى جعل لكل شىء قدراً ، ولكل أمر منتهى ، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية .

* أى : وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده ، بعد ما أخبروه هذا الخبر ، واشتد به الأسف والأسى ، وابيضت عيناه من الحزن ، الذى فى قلبه ، والكمد الذى أوجب له كثرة البكاء ، حيث ابيضت عيناه من ذلك .

[فهو كظيم] أى : ممتلىء القلب من الحزن الشديد .

[وقال يا أسفى على يوسف] أى : ظهر منه ما كمن من الهم القديم ، والشوق المقيم ، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة ، بالنسبة للأولى ، المصيبة الأولى ، فقال له أولاده — متعجبين من حاله — :

[تالله تفتأ تذكر يوسف] أى : لا تزال تذكر يوسف فى جميع أحوالك .

[حتى تكون حرضاً] أى : فانياً لا حراك فيك ، ولا قدرة على الكلام .

قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ

[أو تكون من الهالكين] أى : لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً .

[قال] يعقوب [إنما أشكو بثى] أى : ما أبت من الكلام [وحزنى] الذى فى قلبى [إلى الله] وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم [وأعلم من الله ما لا تعلمون] من أنه سيردهم عَلَىَّ ويقر عينى بالاجتماع بهم .

* أى : قال يعقوب عليه السلام لبنيه [يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه] .

أى: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما [ولا تيأسوا من روح الله].

فإن الرجاء ، يوجب للعبد ، السعى والاجتهاد ، فيما رجاه ، والإياس : يوجب له التثاقل والتباطؤ .

وأولى ما رجا العباد ، فضل الله وإحسانه ، ورحمته ، وروحه .

[إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون] .

فإنهم — لكفرهم — يستبعدون رحمته ، ورحمته بعيدة منهم ، فلا تتشبهوا بالكافرين .

مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد، يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه.

فذهبوا [فلما دخلوا عليه] أى : على يوسف [قالوا] متضرعين إليه : [يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا] أى : قد اضطررنا نحن وأهلنا [وجئنا ببضاعة مزجاة] أى : مدفوعة مرغوب عنها ، لقلتها ، وعدم وقوعها الموقع .

[فأوف لنا الكيل] أى : مع عدم وفاء العرض ، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب .

[إن الله يجزى المتصدقين] بثواب الدنيا والآخرة .

فلما انتهى الأمر ، وبلغ أشده ، رقَّ لهم يوسف رِقَّةً شديدة ، وعرَّفَهُمْ بنفسه ، وعاتبهم فقال :

[هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه] أما يوسف فظاهر فعلهم فيه .

وأما أخوه ، فلعله — والله أعلم — قولهم : [إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل] .

أو أن الحادث الذى فرّق بينه وبين أبيه ، هم السبب فيه ، والأصل الموجب له .

[إذ أنتم جاهلون] وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم ، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين ، مع أنه لا ينبغى ، ولا يليق منهم .

لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

فعرفوا أن الذى خاطبهم ، هو يوسف فقالوا :

[أإنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا] بالإيمان والتقوى ، والتمكين فى الدنيا ، وذلك بسبب الصبر والتقوى .

[إنه من يتق ويصبر] أى : يتقى فعل ما حرم الله ، ويصبر على الآلام والمصائب ، وعلى الأوامر ، بامتثالها [فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] فإن هذا ، من الإحسان ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

[قالوا تالله لقد آثرك الله علينا] أى : فضلك علينا ، بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وأسأنا إليك غاية الإساءة ، وحرصنا على إيصال الأذى إليك ، والتبعيد لك عن أبيك ، فآثرك الله تعالى ، ومكنك مما تريده [وإن كنا لخاطئين] .

[قال] لهم يوسف عليه السلام ، كرما وجوداً : [لاتثريب عليكم اليوم] أى : لا أثرب عليكم ولا ألومكم [يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين] .

فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذى لا يتأتى إلا من خواص الخلق ، وخيار المصطفين .

ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ

أى : قال يوسف عليه السلام لإخوته : [اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً] لأن كل داء يداوى بضده .

فهذا القميص — لما كان فيه أثر ريح يوسف ، الذى أودع قلب أبيه من الحزن ، والشوق ، ما الله به عليم — أراد أن يشمه ، فترجع إليه روحه ، وتتراجع إليه نفسه ، ويرجع إليه بصره .

ولله فى ذلك حكم وأسرار ، لا يطلع عليها العباد ، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .

[وأْتُونى بأهلكم أجمعين] أى : أولادكم وعشيرتكم ، وتوابعكم كلهم ، ليحصل تمام اللقاء ، ويزول عنكم نكد المعيشة ، وضنك الرزق .

[ولما فصلت العير] عن أرض مصر ، مقبلة إلى أرض فلسطين ، شَمَّ يعقوب ريح القميص فقال :

[إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون] أى : تسخرون منى ، وتزعمون أن هذا الكلام ، صدر منى ، من غير شعور ، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ، ما أوجب له هذا القول .

فوقع ما ظنه بهم فقالوا : [تالله إنك لفى ضلالك القديم] أى: لا تزال تائهاً فى بحر لُجِّىٍّ لا تدرى ما تقول .

تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

[فلما أن جاء البشير] بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم .

[ألقاه] أى : القميص [على وجهه ، فارتد بصيراً] أى : رجع إلى حاله الأولى بصيراً ، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن .

فقال لمن حضره من أولاده وأهله ، الذين كانوا يفندون رأيه ، ويتعجبون منه منتصراً عليهم ، مغتبطا بنعمة الله عليه :

[ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون] حيث كنت مترجياً للقاء يوسف ، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن .

فأقروا بذنبهم و [قالوا : ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين] حيث فعلنا معك ما فعلنا .

[قال] مجيباً لطلبتهم ، ومسرعا لإجابتهم : [سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم] ورجائى به ، أن يغفر لكم ، ويرحمكم ، ويتغمدكم برحمته .

وقد قيل : إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ، ليكون أتمَّ للاستغفار ، وأقرب للإجابة .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن

أى : [فلما] تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون ، وارتحلوا من بلادهم ، قاصدين الوصول إلى يوسف فى مصر وسكناها .

فلما وصلوا إليه ، و[دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه] أى : ضمهما إليه ، واختصهما بقربه ، وأبدى لهما من البر والإحسان ، والتبجيل والإعظام شيئاً عظيما .

[وقال] لجميع أهله : [ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين] من جميع المكاره والمخاوف .

فدخلوا فى هذه الحال السارة ، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة ، وحصل السرور والبهجة .

[ورفع أبويه على العرش] أى : على سرير الملك ، ومجلس العز .

[وخروا له سجداً] أى : أبوه ، وأمه ، وإخوته ، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام .

[وقال] لما رأى هذه الحال ، ورأى سجودهم له : [يا أبت هذا تأويل رُءْيَيَ من قبل] حين رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر له ساجدين.

فهذا وقوعها ، الذى آلت إليه ووصلت [قد جعلها ربى حقاً] فلم يجعلها أضغاث أحلام .

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ

[وقد أحسن بى] إحساناً جسيما [إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البَدْوِ] .

وهذا من لطفه ، وحسن خطابه ، عليه السلام ، حيث ذكر حاله فى السجن ، ولم يذكر حاله فى الجب ، لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لا يذكر ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البادية ، من إحسان الله .

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب .

ولا قال : « أَحْسَنَ بكم » بل قال « أحسن بى » .

جعل الإحسان ، عائداً إليه .

فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ، ويهب لهم من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب .

[من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى] فلم يقل « نزغ الشيطان إخوتى » بل كأن الذنب والجهل ، صدر من الطرفين .

فالحمد لله ، الذى أخزى الشيطان ودحره ، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة .

إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

[إن ربى لطيف لما يشاء] يوصل بره وإحسانه إلى العبد، من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها .

[وإنه هو العليم] الذى يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم .

[الحكيم] فى وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها .

* لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين فى الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذى أعطاه الله إياه فقال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام [رب قد آتيتنى من الملك] وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك [وعلمتنى من تأويل الأحاديث] أى من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم [فاطر السموات والأرض توفني مسلماً] أى أدم عَلَىَّ الإسلام وثبتنى عليه حتى تتوفانى عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، [وألحقنى بالصالحين] من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

لما قص الله هذه القصة على محمد صلى الله عليه وسلم قال الله له :

[ذلك] النبأ الذى أخبرناك به [من أنباء الغيب نوحيه إليك] ولولا إيحاؤنا إليك ، لما وصل إليك هذا الخبر الجليل .

[و] أنك [ما كنت [حاضراً] لديهم [إذ أجمعوا أمرهم] أى : إخوة يوسف [وهم يمكرون] به ، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه ، فى حالة ، لا يطلع عليها إلا الله تعالى ، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها ، إلا بتعليم الله له إياها .

كما قال تعالى لما قص قصة موسى ، وما جرى له ، ذكر الحال التى لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فقال :

« وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين » الآيات ، فهذا أدل دليل ، على أن ما جاء بها رسول الله حق وصدق .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [وما أكثر الناس ولو حرصت] على إيمانهم [بمؤمنين] فإن مداركهم ومقاصدهم ، قد أصبحت فاسدة ، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ، ولو عدمت الموانع ، بأنهم كانوا يعلمونهم ، ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، من غير أجر ولا عوض ، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ، ما أقاموا .

وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

ولهذا قال : [وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين] يتذكرون به ما ينفعهم ، ليفعلوه ، وما يضرهم ليتركوه .

[وكأين] أى : وكم [من آية فى السموات والأرض يمرون عليها] دالة لهم على توحيد الله [وهم عنها معرضون] .

ومع هذا [و] إن وجد منهم بعض الإيمان [ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون] .

فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، فإنهم يشركون فى ألوهية الله وتوحيده .

فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال ، لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب ، ويفاجئهم العقاب وهم آمنون ، ولهذا قال :

[أفأمنوا] أى : الفاعلون لتلك الأفعال ، المعرضون عن آيات الله [أن تأتيهم غاشية من عذاب الله] أى : عـذاب ، يغشاهم ويعمهم ، ويستأصلهم .

[أو تأتيهم الساعة بغتة] أى : فجأة [وهم لا يشعرون] أى : فإنهم قد استوجبوا ذلك ، فليتوبوا إلى الله وليتركوا ، ما يكون سبباً فى عقابهم .

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [قل] للناس [هذه سبيلى] أى : طريقى ، التى أدعوا إليها ، وهى السبيل الموصلة إلى الله ، وإلى دار كرامته ، المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به ، وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له .

[أدعو إلى الله] أى : أَحُثُّ الخلق والعباد ، على الوصول إلى ربهم ، وأُرغِّبُهم في ذلك ، وأُرَهِّبُهم مما يبعدهم عنه .

ومع هذا ، فأنا [على بصيرة] من دينى ، أى : على علم ويقين ، من غير شك ولا امتراء ، ولا مرية .

[أنا و] كذلك [من اتبعنى] يدعو إلى الله ، كما أدعو ، على بصيرة من أمره .

[وسبحان الله] عما ينسب إليه ، مما لا يليق بجلاله ، أو ينافى كماله .

[وما أنا من المشركين] فى جميع أمورى ، بل أعبد الله ، مخلصاً له الدين .

ثم قال تعالى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا] أى: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق .

فلأى شيء يستغرب قومك رسالتك ، ويزعمون أنه ليس عليهم فضل.

فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة [نوحى إليهم من أهل القرى]

فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ

أى : لا من البادية ، بل من أهل القرى ، الذين هم أكمل عقولا ، وأصح آراء ، وليتبين أمرهم ، ويتضح شأنهم .

[أفلم يسيروا فى الأرض] إذا لم يصدقوا لقولك .

[فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] كيف أهلكهم الله بتكذيبهم .

فاحذروا ، أن تقيموا على ما قاموا عليه ، فيصيبكم ما أصابهم .

[ولدار الآخرة] أي : الجنة وما فيها ، من النعيم المقيم .

[خير للذين اتقوا] الله ، فى امتثال أوامره ، وَاجتناب نواهيه .

فإن نعيم الدنيا ، منغص منكد ، منقطع .

ونعيم الآخرة ، تام كامل ، لا يفنى أبداً ، بل هو على الدوام ، فى تزايد وتواصل ، « عطاء غير مجذوذ » [أفلا تعقلون] أى : أفلا تكون لكم عقول ، تُؤْثِرُ الذى هو خير ، على الأدنى .

* يخبر تعالى : أنه يرسل الرسل الكرام ، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام.

وأن الله تعالى يمهلهم ، ليرجعوا إلى الحق .

ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

حتى إن الرسل — على كمال يقينهم ، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده — ربما أنه يخطر بقلوبهم ، نوع من الإياس ، ونوع من ضعف العلم والتصديق .

فإذا بلغ الأمر هذه الحال [جاءهم نصرنا فنجى من نشاء] وهم الرسل وأتباعهم .

[ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين] أى : ولا يرد عذابنا ، عمن اجترم ، وتجرأ على الله « فما لهم من قوة ولا ناصر » .

[لقد كان فى قصصهم] أى قصص الأنبياء والرسل مع قومهم .

[عبرة لأولى الألباب] أى : يعتبرون بها ، أهل الخير ، وأهل الشر .

وأن من فعل مثل فعلهم ، ناله ما نالهم ، من كرامة ، أو إهانة .

ويعتبرون بها أيضا ، ما لله ، من صفات الكمال والحكمة العظيمة ، وأنه الله ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

وقوله [ما كان حديثاً يفترى] أى : ما كان هذا القرآن ، الذى قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص ، من الأحاديث المفتراة المختلقة .

[ولكن] كان تصديق [الذى بين يديه] من الكتب السابقة ، يوافقها ، ويشهد لها بالصحة .

[وتفصيل كل شىء] يحتاج إليه العباد ، من أصول الدين وفروعه ، ومن الأدلة والبراهين .

. . . .

[وهدى ورحمة لقوم يؤمنون] فإنهم — بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره — يحصل لهم الهدى ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل ، تحصل لهم الرحمة .

فصل

فى ذكر شىء من العبر والفوائد التى اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التى قال الله فى أولها [نحن نقص عليك أحسن القصص] وقال [لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين] وقال فى آخرها [لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب] غير ما تقدم فى مطاويها من الفوائد .

فمن ذلك ، أن هذه القصة ، من أحسن القصص وأوضحها ، وأبينها ، لما فيها من أنواع التنقلات ، من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومِنَّةٍ ، ومن ذل إلى عز ومن رقٍّ إلى ملك ، ومن فرقة وشتات ، إلى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن إلى سرور ، ومن رخاء إلى جدب ، ومن جدب إلى رخاء ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن إنكار إلى قرار .

فتبارك من قصها ، فأحسنها ، ووضحها وبَيَّنها .

ومنها : أن فيها أصلا لتعبير الرؤيا ، فإن علم التعبير ، من العلوم المهمة ، التى يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تبنى عليه ، المناسبة والمشابهة فى الاسم والصفة .

فإن رؤيا يوسف ، التي رأى فيها الشمس والقمر ، وأحد عشر كوكباً له ساجدين ، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار ، هى زينة السماء وجمالها ، وبها منافعها .

. . . .

فكذلك الأنبياء والعلماء ، زينة للأرض وجمال ، وبهم يهتدى في الظلمات ، كما يهتدى بهذه الأنوار ، ولأن الأصل أبوه وأمه ، وإخوته هم الفرع .

فمن المناسب أن يكون الأصل ، أعظم نوراً ، وجرماً ، لما هو فرع عنه.

فلذلك كانت الشمس أمه ، والقمر أباه ، والكواكب إخوته .

ومن المناسبة أن الشمس ، لفظ مؤنث ، فلذلك كانت أمه ، والقمر والكواكب ، مذكرات ، فكانت لأبيه وإخوته .

ومن المناسبة ، أن الساجد معظم محترم للمسجود له ، والمسجود ، معظم محترم .

فلذلك ، دل ذلك ، على أن يوسف يكون معظما محترماً ، عند أبويه وإخوته .

ومن لازم ذلك ، أن يكون مجتبي مفضلا ، في العلم والفضائل ، الموجبة لذلك .

ولذلك قال أبوه : «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث».

ومن المناسبة في رؤيا الفتيين ، أن الرؤيا الأولى ، التي رأى صاحبها ، أنه يعصر خمرا ، أن الذى يعصر خمراً في العادة ، يكون خادماً لغيره ، والعصر يقصد لغيره .

فلذلك أَوَّلَهُ بما يئول إليه ، أنه يسقى ربه ، وذلك متضمن لخروجه من السجن .

وأوَّل رؤيا الآخر ، أى: أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، تأكل الطير

. . . .

منه ، بأن جلدة رأسه ولحمه ، وما فى ذلك من المخ ، أنه هو الذى يحمل ، وأنه سيبرز للطيور ، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه .

فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه .

وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .

وَأوَّلَ رؤيا الملك ، للبقرات والسنبلات ، بالسنين المخصبة ، والسنين المجدبة .

ووجه المناسبة ، أن الملك ، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها ، وبصلاحه تصلح ، وبفساده تفسد .

وكذلك السنون ، بها صلاح أحوال الرعية ، واستقامة أمر المعاش ، أو عدمه .

وأما البقر ، فإنها تحرث الأرض عليها ، ويستقى عليها الماء .

وإذا أخصبت السنة ، سمنت ، وإذا أجدبت ، صارت عجافاً .

وكذلك السنابل فى الخصب ، تكثر وتخضر ، وفى الجدب ، تقل وتيبس وهى أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الأدلة ، على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ، ولا دارس أحداً .

يراه قومه، بين أظهرهم ، صباحا ومساء ، وهو أُمِّىٌّ لايخط ولا يقرأ .

وهى موافقة ، لما فى الكتب السابقة ، وما كان لديهم ، إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون .

. . . .

ومنها : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر ، وكتمان ما تخشى مضرته ، لقول يعقوب ليوسف [لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا].

ومنها أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله : [فيكيدوا لك كيدا] .

ومنها : أن نعمة الله على العبد ، نعمة على من يتعلق به ، من أهل بيته ، وأقاربه ، وأصحابه ، وأنه ربما شملهم ، وحصل لهم ما حصل لهسببه ، كما قال يعقوب فى تفسيره لرؤيا يوسف [وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب] .

ولما تمت النعمة على يوسف ، حصل لآل يعقوب ، من العز والتمكين فى الأرض ، والسرور والغبطة ، ما حصل بسبب يوسف .

ومنها : أن العدل مطلوب فى كل الأمور ، لا فى معاملة السلطان رعيته فقط ، ولا فيما دونه ، بل حتى فى معاملة الوالد لأولاده ، فى المحبة والإيثار ، وغيره ، وأن فى الإخلال بذلك ، يختل عليه الأمر ، وتفسد الأحوال .

ولهذا ، لما قدم يعقوب يوسف فى المحبة ، وآثره على إخوته ، جرى منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى أبيهم وأخيهم .

ومنها : الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد ، يستتبع ذنوباً متعددة ، ولا يتم لفاعله ، إلا بعد جرائم .

فإخوة يوسف ، لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه ، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا على أبيهم فى القميص

. . . .

والدم ، الذى فيه ، وفى إتيانهم عشاء يبكون ، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها ، فى تلك المدة ، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف .

وكلما صار البحث ، حصل من الإخبار بالكذب ، والافتراء ، ما حصل.

وهذا شؤم الذنب ، وآثاره التابعة ، والسابقة ، واللاحقة .

ومنها : أن العبرة فى حال العبد ، بكمال النهاية ، لا بنقص البداية .

فإن أولاد يعقوب ، عليه السلام ، جرى منهم ماجرى ، فى أول الأمر ، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ، والسماح التام ، من يوسف ، ومن أبيهم ، والدعاء بالمغفرة والرحمة .

وإذا سمح العبد عن حقه ، فالله خير الراحمين .

ولهذا — فى أصح الأقوال — أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى [وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط] .

والأسباط هم : أولاد يعقوب الاثنا عشر ، وذريتهم .

ومما يدل على ذلك ، أن فى رؤيا يوسف ، أنه رآهم كواكب نيرة ، والكواكب فيها النور والهداية ، وذلك من صفات الأنبياء ، فإن لم يكونوا أنبياء ، فإنهم علماء هداة .

ومنها : ما مَنَّ الله به على يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، من العلم ، والحلم ، ومكارم الأخلاق ، والدعوة إلى الله ، وإلى دينه ، وعفوه عن إخوته الخاطئين ، عفوًا بادرهم به ، وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم ، ولا يعيرهم به .

. . . .

ثم بِرُّهُ العظيم بأبويه ، وإحسانه لإخوته ، بل لعموم الخلق .

ومنها : أن بعض الشر ، أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين ، أولى من ارتكاب أعظمهما .

فإن إخوة يوسف ، لما اتفقوا على قتل يوسف ، أو إلقائه أرضا وقال قائل منهم : [لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب] كان قوله أحسن منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها : أن الشيء إذا تداولته الأيدى ، وصار من جملة الأموال ، ولم يعلم أنه كان على غير الشرع ، أنه لا إثم على من باشره ، ببيع ، أو شراء ، أو خدمة ، أو انتفاع ، أو استعمال .

فإن يوسف عليه السلام ، باعه إخوته بيعاً حراما ، لا يجوز .

ثم ذهبت به السيارة إلى مصر ، فباعوه بها ، وبقى عند سيده غلاما رقيقاً ، وسماه الله سيداً ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم .

ومنها : الحذر من الخلوة بالنساء ، اللائى يخشى منهن الفتنة ، والحذر أيضاً من المحبة ، التى يخشى ضررها .

فإن امرأة العزيز ، جرى منها ما جرى ، بسبب انفرادها بيوسف ، وحبها الشديد له ، الذى ما تركها ، حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت عليه ، فسجن — بسببها — مدة طويلة .

ومنها : أن الهمّ الذى ، همّ به يوسف بالمرأة ، ثم تركه لله ، مما يرقيه إلى الله زلفى ، لأن الهمّ داع من دواعى النفس ، الأمارة بالسوء ، وهو طبيعة لأغلب الخلق .

. . . .

فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته ، غلبت محبة الله وخشيته ، داعى النفس والهوى .

فكان ممن « خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » .

ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظل عرشه ، يوم لاظل إلا ظله ، أحدهم رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله .

وإنما الهم الذى يلام عليه العبد ، الهم الذى يساكنه ، ويصير عزما ، ربما اقترن به الفعل .

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه ، وكان مخلصا لله ، فى جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه ، وصدق إخلاصه ، من أنواع السوء والفحشاء واسباب المعاصى ، ماهو جزاء لإيمانه واخلاصه لقوله . [وهم بها لولا أن رآى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين] على قراءة من قراها بكسر اللام .

ومن قرأها بالفتح ، فإنه من إخلاص الله إياه ، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه .

فلما أخلص عمله لله ، أخلصه الله ، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها : أنه ينبغى للعبد ، إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية ، أن يفر منه ، ويهرب ، غاية مايمكنه ، ليتمكن من التخلص من المعصية .

لأن يوسف عليه السلام — لما راودته التى هو فى بيتها - فر هاربا ، يطلب الباب ، ليتخلص من شرها .

ومنها : أن القرائن يعمل بها ، عند الاشتباه .

. . . .

فلو تخاصم رجل وامراته فى شىء ، من أوانى الدار ، فما يصلح للرجل ، فإنه للرجل ، وما يصلح للمرأة ، فهو لها ، هذا إذا لم يكن بينة .

وكذا لو تنازع نجار وحداد فى آلة حرفتهما ، من غير بينة .

والعمل بالقيافة ، فى الأشباه والأثر ، من هذا الباب .

فإن شاهد يوسف ، شهد بالقرينة ، وحكم بها فى قد القميص ، واستدل بِقَدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها .

ومما يدل على هذه القاعدة ، أنه استدل بوجود الصُّواع فى رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة ، من غير بينة شهادة ، ولا إقرار .

فعلى هذا ، إذا وجد المسروق فى يد السارق ، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة ، فإنه يحكم عليه بالسرقة ، وهذا أبلغ من الشهادة .

وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر ، أو وجود المرأة التى لا زوج لها ولا سيد ، حاملا ، فإنه يقام بذلك ، الحد ، مالم يقم مانع منه .

ولهذا سمى الله هذا الحكم شاهداً فقال : [وشهد شاهد من أهلها] .

ومنها : ماعليه يوسف ، من الجمال الظاهر والباطن .

فإن جماله الظاهر ، أوجب للمرأة التى هو فى بيتها ، ما أوجب .

وللنساء اللاتى جمعتهن حين لُمْنَهَا على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن [ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم] .

وأما جماله الباطن ، فهو العفة العظيمة عن المعصية ، مع وجود الدواعى الكثيرة لوقوعها ، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ، ببراءته .

. . . .

ولهذا قالت امرأة العزيز: [ولقد راودته عن نفسه فاستعصم] .

وقالت بعد ذلك : [الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين] .

وقالت النسوة : [حاش لله ما علمنا عليه من سوء] .

ومنها : أن يوسف عليه السلام ، اختار السجن على المعصية .

فهكذا ينبغى للعبد ، إذا ابتلى بين أمرين — إما فعل معصية ، وإما عقوبة دنيوية — أن يختار العقوبة الدنيوية ، على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة ، فى الدنيا والآخرة .

ولهذا من علامات الإيمان ، أن يكره العبد أن يعود فى الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار .

ومنها : أنه ينبغى للعبد ، أن يلتجىء إلى الله ، ويحتمى بحماه عند وجود أسباب المعصية ، ويتبرأ من حوله وقوته ، لقول يوسف عليه السلام [وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين] .

ومنها : أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير ، وينهيانه عن الشر .

وأن الجهل ، يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس ، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه .

ومنها : أنه كما على العبد عبودية لله فى الرخاء ، فعليه عبودية له فى الشدة .

. . . .

فـ « يوسف » عليه السلام ، لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن ، استمر على ذلك ، ودعا الفتيين إلى التوحيد ، ونهاهما عن الشرك .

ومن فطنته عليه السلام ، أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته ، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا : [إنا نراك من المحسنين] وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما ، فرآهما ، متشوقين لتعبيرها عنده — رأى ذلك فرصة ، فانتهزها ، فدعاهما إلى الله تعالى ، قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرب لحصول مطلوبه .

وبين لهما أولا ، أن الذى أوصله إلى الحال التى رأياه فيها ، من الكمال والعلم ، إيمانه ، وتوحيده ، وتركه ملة من لايؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بلسان الحال .

ثم دعاهما بالمقال ، وبين فساد الشرك ، وبرهن عليه ، وحقيقة التوحيد، وبرهن عليه .

ومنها : أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سئل المفتى ، وكان السائل فى حاجة أشد لغير ما سأل عنه ، أنه ينبغى له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله .

فإن هذا ، علامة على نصح المعلم وفطنته ، وحسن إرشاده وتعليمه .

فإن يوسف ــ لما سأله الفتيان عن الرؤيا ــ قدم لهما قبل تعبيرها — دعوتهما إلى الله وحده لاشريك له .

ومنها : أن من وقع فى مكروه وشدة ، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه ، أو الإخبار بحاله ، وأن هذا ، لايكون شكوى للمخلوق

. . . .

فإن هذا ، من الأمور العادية ، التي جرى العرف باستعانة الناس ، بعضهم ببعض .

ولهذا قال يوسف ، للذى ظن أنه ناج من الفتيين : [اذكرنى عند ربك] .

ومنها : أنه ينبغى ويتأكد على المعلم ، استعمال الإخلاص التام فى تعليمه وأن لايجعل تعليمه ، وسيلة لمعاوضة أحد فى مال ، أو جاه ، أو نفع ، وأن لايمتنع من التعليم ، أولا ينصح فيه ، إذا لم يفعل السائل ماكلفه به المعلم .

فإن يوسف عليه السلام قد قال ، ووصى أحد الفتيين ، أن يذكره عند ربه ، فلم يذكره ونسى .

فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف ، أرسلوا ذلك الفتى ، وجاءه سائلا مستفتيا عن تلك الرؤيا ، فلم يعنفه يوسف ، ولا وبخه ، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله ، جواباً تاماً من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغى للمسئول أن يدل السائل على أمر ينفعه ، مما يتعلق بسؤاله ، ويرشده إلى الطريق ، التى ينتفع بها ، فى دينه ودنياه ، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته ، وحسن إرشاده .

فإن يوسف ، عليه السلام ، لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك .

بل دلهم ـ مع ذلك ـ على ما يصنعون فى تلك السنين المخصبات ، من كثرة الزرع ، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يلام الإنسان على السعى فى دفع التهمة عن نفسه ، وطلب

. . . .

البراءة لها ، بل يحمد على ذلك ، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة ، اللاتى قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم ، علم الأحكام والشرع ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ، ولو بلغت فى الحسن جمال يوسف .

فإن يوسف ـ بسبب جماله ـ حصلت له تلك المحنة ، والسجن ، وبسبب علمه ، حصل له العز والرفعة ، والتمكين فى الأرض .

فإن كل خير فى الدنيا والآخرة ، من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير ، من العلوم الشرعية ، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه ، وأن تعبير الرؤيا ، داخل فى الفتوى ، لقوله للفتيين :
[قضى الأمر الذى فيه تستفتيان] وقال الملك [أفتونى فى رؤياى] .
وقال الفتى ليوسف : [أفتنا فى سبع بقرات] الآيات .

فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا ، من غير علم .

ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما فى نفسه ، من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كان فى ذلك مصلحة ، ولم يقصد به العبد الرياء ، وسلم من الكذب .

لقول يوسف : [اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم] .

وكذلك لاتذم الولاية ، إذا كان المتولى فيها ، يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله ، وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءة من غيره .

. . . .

وإنما الذى يذم ، إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجوداً غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله .

فبهذه الأمور ، ينهى عن طلبها ، والتعرض لها .

ومنها : أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده ، بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة ، له سببان : الإيمان ، والتقوى . وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها .

وأن العبد ينبغى له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن ، إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها ، وهى غير قادرة عليها ، بل يسليها بثواب الله الأخروى ، وفضله العظيم لقوله تعالى : [ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون] .

ومنها : أن جباية الأرزاق ـ إذا أريد بها التوسعة على الناس ، من غير ضرر يلحقهم ـ لا بأس بها ، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة ، فى السنين المخصبات ، للاستعداد للسنين المجدبة .

وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله ، بل يتوكل العبد على الله ، ويعمل الأسباب التى تنفعه ، فى دينه ودنياه .

ومنها : حسن تدبير يوسف ، لما تولى خزائن الأرض ، حتى كثرت عندهم الغلات جداً ، وحتى صار أهل الأقطار ، يقصدون مصر لطلب الميرة منها ، لعلمهم بوفورها فيها ، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين ، وإكرام

. . . .

الضيف لقول يوسف لإخوته [ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين] .

ومنها : أن سوء الظن — مع وجود القرائن الدالة عليه — غير ممنوع ولا محرم .

فإن يعقوب قال لأولاده — بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ، ثم قال لهم بعد ما أتوه ، وزعموا أن الذئب أكله [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] .

قال لهم فى الأخ الآخر : [هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل] .

ثم لما احتبسه يوسف عنده ، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] فهم فى الأخيرة — وأن لم يكونوا مفرطين ، فقد جرى منهم ، ما أوجب لأبيهم ، أن قال ما قال ، من غير إثم عليه ولاحرج .

ومنها : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره ، أو الرافعة لها بعد نزولها ، غير ممنوع ، بل جائز ، وإن كان لا يقع شىء إلا بقضاء وقدر .

فإن الأسباب أيضاً ، من القضاء والقدر لأمر يعقوب ، حيث قال لبنيه ، [يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة] .

ومنها : جواز استعمال المكايد ، التى يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها ، مما يحمد عليه العبد .

. . . .

وإنما الممنوع ، التحيل على إسقاط واجب ، أو فعل محرم .

ومنها : أنه ينبغى لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لايحب أن يطلع عليه ، أن يستعمل المعاريض القولية والفعلية ، المانعة من الكذب .

كما فعل يوسف ، حيث ألقى الصُّواع فى رحل أخيه ، ثم استخرجها منه ، موهما أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته .

وقال بعد ذلك : [معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده] ولم يقل « من سرق متاعنا » وكذلك لم يقل « إنا وجدنا متاعنا عنده » بل أتى بكلام عام ، يصلح له ولغيره .

وليس فى ذلك محذور ، وإنما فيه إيهام أنه سارق ، ليحصل المقصود الحاضر ، وأن يبقى عنده أخوه ، وقد زال عن الأخ هـذا الإيهام ، بعد ما تبينت الحال .

ومنها : أنه لايجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه ، وتحققه بمشاهدة ، أو خبر من يثق به ، وتطمئن إليه النفس لقولهم : [وما شهدنا إلا بما علمنا] .

ومنها : هذه المحنة العظيمة ، التى امتحن الله بها نبيه وصفيه ، يعقوب عليه السلام ، حيث قضى بالتفريق ، بينه وبين ابنه يوسف ، الذى لايقدر على فراقه ساعة واحدة ، ويحزنه ذلك أشد الحزن .

فحصل التفريق بينه وبينه ، مدة طويلة ، لاتقصر عن ثلاثين سنة .

ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه فى هذه المدة [وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم] .

. . . .

ثم ازداد به الأمر شدة ، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثانى ، شقيق يوسف .

هذا هو صابر لأمر الله ، محتسب الأجر من الله ، قد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا شك أنه وفى بما وعد به .

ولا ينافى ذلك ، قوله : [إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله] فإن الشكوى إلى الله ، لاتنافى الصبر .

وإنما الذى ينافيه ، الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها : أن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسراً .

فإنه لما طال الحزن على يعقوب ، واشتد به إلى أنهى[١] ما يكون ، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ، ومسهم الضر ، أذن الله حينئذ ، بالفرج .

فحصل التلاقى ، فى أشد[٢] الأوقات إليه حاجة واضطراراً ، فتم بذلك الأجر ، وحصل السرور .

وعلم من ذلك ، أن الله يبتلى أولياءه بالشدة والرخاء ، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ، ويزداد ـ بذلك ـ إيمانهم ويقينهم وعرفانهم .

---

(١) أنهى . أى : بلغ أقصى ما يتصوره الإنسان .

(٢) قوله « فى أشد الأوقات إليه حاجة واضطراراً » فيه أنه لو قال فحصل التلاقى أحوج ما يكون إليه » لوضح المعنى وحصل المقصود مع الاختصار فى الكلام .

. . . .

ومنها : جواز إخبار الإنسان بما يجد ، وما هو فيه ، من مرض ، أو فقر ونحوهما ، على غير وجه التسخط .

لأن إخوة يوسف قالوا : [يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر] ولم ينكر عليهم يوسف .

ومنها : فضيلة التقوى ، وأن كل خير فى الدنيا والآخرة ، فمن آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلهما ، أحسن العواقب لقوله :

[قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين] .

ومنها : أنه ينبغى لمن أنعم الله عليه بنعمة ، بعد شدة ، وفقر ، وسوء حال ، أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن لايزال ذاكرا حاله الأولى ، ليحدث لذلك شكراً ، كلما ذكرها ، لقول يوسف عليه السلام :

[وقد أحسن بى إذا أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو] .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف ، حيث نقله فى تلك الأحوال ، وأوصل إليه الشدائد والمحن ، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ، ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغى للعبد أن يتملق إلى الله دائما ، فى تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ، ويسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام :

. . . .

[ربِّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولِيِّ فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين] .

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر ، فى هذه القصة المباركة ، ولابد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .

فنسأله تعالى ، علماً نافعاً ، وعملا متقبلا ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

تفســــير

سُورَةُ الرَّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

* يخبر تعالى : أن هذا القرآن ، هو آيات الكتاب الدالة ، على كل مايحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذى أنزل إلى الرسول من ربه ، هو الحق المبين .

لأن إخباره صدق ، وأوامره ، ونواهيه ، عدل ، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة .

فمن أقبل عليه ، وعلى علمه ، كان من أهل العلم بالحق ، الذى يوجب لهم علمهم به ، العمل بما أوجب الله .

[ولكن أكثر الناس لايؤمنون] بهذا القرآن ، إما جهلا ، وإعراضاً عنه ، وعدم اهتمام به ، وإما عناداً وظلماً .

فلذلك أكثر الناس ، غير منتفعين به ، لعدم السبب الموجب للانتفاع .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

---

* يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير ، والعظمة والسلطان ، الدال على أنه وحده المعبود ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له فقال :

[الله الذى رفع السموات] على عظمها واتساعها ، بقدرته العظيمة .

[بغير عمد ترونها] أى ليس لها عمد من تحتها ، فإنه لو كان لها عمد ، لرأيتموها .

[ثم] بعد ما خلق السموات والأرض [استوى على العرش] العظيم الذى هو أعلى المخلوقات ، استواء يليق بجلاله ، ويناسب كماله .

[وسخر الشمس والقمر] لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم .

[كل] من الشمس والقمر [يجرى] بتدبير العزيز العليم .

[إلى أجل مسمى] بسير منتظم ، لايفتران ، ولاينيان ، حتى يجئ الأجل المسمى وهو طىُّ الله هذا العالم ، ونقلهم إلى الدار الآخرة ، التى هى دار القرار .

فعند ذلك يطوى الله السموات ، ويبدلها ، ويغير الأرض ويبدلها .

فتكور الشمس والقمر ، ويجمع بينهما ، فيلقيان فى النار ، ليرى من عبدها أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة ، وليعلم الذين كفروا ، أنهم كانوا كاذبين .

يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

وقوله [يدبر الأمر يفصل الآيات] هذا جمع بين الخلق والأمر.

أى : قد استوى الله العظيم على سرير الملك ، يدبر الأمور فى العالم العلوى والسفلى .

فيخلق ويرزق ، ويغنى ، ويفقر ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ، ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، ويقيل العثرات ، ويفرج الكربات ، وينفذ الأقدار فى أوقاتها ، التى سبق بها علمه ، وجرى بها قلمه .

ويرسل ملائكته الكرام ، لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

وينزل الكتب الإلهية على رسله ، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع ، والأوامر والنواهى ، ويفصلها غاية التفصيل،ببيانها ، وإيضاحها وتمييزها .

[لعلكم] بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية ، والآيات القرآنية .

[بلقاء ربكم توقنون] فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها ، من أسباب حصول اليقين ، فى جميع الأمور الإلهية ، خصوصاً فى العقائد الكبار ، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأيضاً ، فقد علم أن الله تعالى ، حكيم لايخلق الخلق سدى ، ولايتركهم عبثاً .

فكما أنه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، لأمر العباد ونهيهم ، فلا بد أن ينقلهم إلى دار ، يحل فيها جزاؤه ، فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء ، ويجازى المسيئين بإساءتهم .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۡهَٰرٗا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

[وهو الذى مد الأرض] أى : خلقها للعباد ، ووسعها ، وبارك فيها ، ومدها للعباد ، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع .

[وجعل فيها رواسى] أى : جبالا عظاما ، لئلا تميد بالخلق .

فإنه لولا الجبال ، لمادت بأهلها ، لأنها على تيار ماء ، لا ثبوت لها ، ولا استقرار ، إلا بالجبال الرواسى ، التى جعلها الله أوتاداً لها .

[و] جعل فيها [أنهاراً] تسقى الآدميين وبهائمهم وحروثهم .

فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار ، خيرا كثيرا ولهذا قال :

[ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين] أى : صنفين ، مما يحتاج إليه العباد .

[يغشى الليل النهار] فتظلم الآفاق ، فيسكن كل حيوان إلى مأواه ، ويستريحون من التعب والنصب فى النهار .

ثم إذا قضوا مأربهم من النوم ، غشى النهار الليل، فإذاهم مصبحون ينتشرون فى مصالحهم وأعمالهم فى النهار .

« ومن رحمته ، جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » .

[إن فى ذلك لآيات] على المطالب الإلهية [لقوم يتفكرون] فيها ، وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذى خلقها ودبرها ، وصرفها ، هو الله الذى لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، وأنه عالم الغيب والشهادة ،

لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٍ وَزَرۡعٌ وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ

الرحمن الرحيم ، وأنه القادر على كل شيء ، الحكيم فى كل شيء ، المحمود على ما خلقه وأمر به ، تبارك وتعالى .

[و] من الآيات على كمال قدرته ، وبديع صنعته .

[فى الأرض قطع متجاورات وجنات] فيها أنواع الأشجار [من أعناب وزرع ونخيل] وغير ذلك .

والنخيل التى بعضها [صنوان] أى : عدة أشجار فى أصل واحد .

[وغير صنوان] بأن كان كل شجرة على حدتها .

والجميع [يسقى بماء واحد] وأرضه واحدة [ونفضل بعضها على بعض فى الأكل] لونا ، وطعما ، ونفعاً ، ولذة .

فهذه أرض طيبة ، تنبت الكلأ والعشب الكثير ، والأشجار والزروع .

وهذه أرض تلاصقها ، لاتنبت كلأ ، ولاتمسك ماء .

وهذه تمسك الماء ، ولاتنبت الكلأ .

وهذه تنبت الزرع والأشجار ، ولا تنبت الكلأ .

وهذه الثمرة حلوة ، وهذه مرة ، وهذه بين ذلك .

فهل هذا التنوع ، فى ذاتها وطبيعتها ؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم ؟

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي

[إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] أى : لقوم لهم عقول تهديهم إلى ماينفعهم ، وتقودهم إلى مايرشدون به ويعقلون عن الله ، وصاياه وأوامره ونواهيه .

وأما أهل الإعراض ، وأهل البلادة ، فهم فى ظلماتهم يعمهون ، وفى غيهم يترددون .

لا يهتدون إلى ربهم سبيلا ، ولا يعون له قيلا .

* يحتمل أن معنى قوله [وإن تعجب] من عظمة الله تعالى ، وكثرة أدلة التوحيد .

فإن العجب — مع هذا — إنكار المكذبين ، وتكذيبهم بالبعث .

وقولهم [أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد] أى : هذا بعيد فى غاية الامتناع بزعمهم ، أنهم بعد ما كانوا ترابا ، أن الله يعيدهم .

فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق .

فلما رأوا هذا ممتنعا ، فى قدرة المخلوق ، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق .

ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ، ولم يكونوا شيئا .

خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن

ويحتمل أن معناه : وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث ، فإن ذلك من العجائب .

فإن الذى توضح له الآيات ، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ، ما لا يقبل الشك والريب ، ثم ينكر ذلك ، فإن قوله من العجائب .

ولكن ذلك لايستغرب على [أولئك الذين كفروا بربهم] وجحدوا وحدانيته ، وهى أظهر الأشياء وأجلاها .

[وأولئك الأغلال] المانعة لهم من الهدى [فى أعناقهم] حيث دعوا إلى الإيمان ، فلم يؤمنوا ، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا .

فقلبت قلوبهم وأفئدتهم ، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة .

[وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] لايخرجون منها أبداً .

* يخبر تعالى ، عن جهل المكذبين لرسوله ، المشركين به ، الذين وعظوا فلم يتعظوا ، وأقيمت عليهم الأدلة ، فلم ينقادوا لها .

بل جاهروا بالإنكار ، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم ، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ، أنهم على حق ، وجعلوا يتعجلون الرسول بالعذاب ، ويقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم » .

قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

[و] الحال أنه [قد خلت من قبلهم المثلات] أى : وقائع الله وأيامه فى الأمم المكذبين ، أفلا يتفكرون فى حالهم ، ويتركون جهلهم .

[وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم] أى : لايزال خيره إليهم ، وإحسانه ، وبره ، وعفوه نازلا إلى العباد .

وهم لايزال شركهم ، وعصيانهم إليه صاعداً .

يعصونه فيدعوهم إلى بابه ، ويجرمون ، فلا يحرمهم خيره وإحسانه .

فإن تابوا إليه ، فهو حبيبهم ، لأنه يحب التوابين ، ويحب المتطهرين

وإن لم يتوبوا ، فهو طبيبهم ، يبتليهم بالمصائب ، ليطهرهم من المعايب

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .

[وإن ربك لشديد العقاب] على من لم يزل مصرا على الذنوب ، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار .

فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم ، فإن أخذه أليم شديد .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾

---

* أى : ويقترح الكفار عليك من الآيات ، التى يعينون ويقولون :

[لولا أنزل عليه آية من ربه] ويجعلون هذا القول منهم . عذراً لهم فى عدم الإجابة إلى الرسول .

والحال ، أنه منذر ، ليس له من الأمر شيء ، والله هو الذي ينزل الآيات .

وقد أيده بالأدلة البينات ، التى لاتخفى على أولى الألباب ، وبها يهتدى من قصده الحق .

وأما الكافر ، الذى - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات ، فهذا اقتراح منه ، باطل وكذب وافتراء .

فإنه لو جاءته أى آية كانت ، لم يؤمن ولم ينقد ، لأنه لم يمتنع من الإيمان ، لعدم مايدله على صحته ، وإنما ذلك ، لهوى نفسه ، واتباع شهوته .

[ولكل قوم هاد] أى : داع يدعوهم إلى الهدى ، من الرسل وأتباعهم .

ومعهم من الأدلة والبراهين ، ما يدل على صحة ما معهم من الهدى .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ

---

* يخبر تعالى ، بعموم علمه ، وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل شيء فقال :

[الله يعلم ما تحمل كل أنثى] من بنى آدم وغيرهم .

[وما تغيض الأرحام] أى : تنقص مما فيها ، إما أن يهلك الحمل ، أو يتضاءل أو يضمحل .

[وما تزداد] الأرحام وتكبر الأجنة التى فيها .

[وكل شيء عنده بمقدار] لا يتقدم عليه ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .

فإنه [عالم الغيب والشهادة الكبير] فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته [المتعال] على جميع خلقه ، بذاته وقدرته ، وقهره .

[سواء منكم] فى علمه وسمعه ، وبصره .

[من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل] أى : مستقر بمكان خفى فيه .

[وسارب بالنهار] أى : داخل سربه فى النهار ، والسرب هو : ما يستخفى فيه الإنسان ، إما جوف بيته ، أو غار ، أو مغارة ، أو نحو ذلك .

[له] أى للإنسان [معقبات] من الملائكة ، يتعاقبون فى الليل والنهار .

بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

[من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله] أى : يحفظون بدنه وروحه ، من كل من يريده بسوء ، ويحفظون عليه أعماله ، وهم ملازمون له دائماً .

فكما أن علم الله محيط به ، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد ، بحيث لاتخفى أحوالهم ولا أعمالهم ، ولاينسى منها شيئاً .

[إن الله لايغير مابقوم] من النعمة والإحسان ، ورغد العيش [حتى يغيروا ما بأنفسهم] بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ، ومن الطاعة إلى المعصية.

أو من شكر نعم الله إلى البطر بها ، فيسلبهم الله إياها عند ذلك .

وكذلك إذا غير العباد ، ما بأنفسهم من المعصية ، فانتقلوا إلى طاعة الله ، غَيَّر الله عليهم ، ماكانوا فيه من الشقاء ، إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة .

[وإذا أراد الله بقوم سوءاً] أى : عذاباً وشدة ، وأمرا يكرهونه ، فإن إرادته ، لابد أن تنفذ فيهم .

[ف] إنه [لامرد له] ولا أحد يمنعهم منه .

[وما لهم من دونه من وال] يتولى أمورهم ، فيجلب لهم المحبوب ، ويدفع عنهم المكروه .

فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله ، خشية أن يحل بهم من العقاب مالا يرد عن القوم المجرمين .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا] أى : يخاف منه الصواعق والهدم ، وأنواع الضرر ، على بعض الثمار ونحوها ، ويطمع فى خيره ونفعه .

[وينشىء السحاب الثقال] بالمطر الغزير، الذى به نفع العباد والبلاد .

[ويسبح الرعد بحمده] وهو الصوت ، الذى يسمع من السحاب المزعج للعباد ، فهو خاضع لربه ، مسبح بحمده .

[و] تسبح [الملائكة من خيفته] أي: خشعاً لربهم ، خائفين من سطوته .

[ويرسل الصواعق] وهى هذه النار ، التى تخرج من السحاب .

[فيصيب بها من يشاء] من عباده ، بحسب ماشاءه وأراده [وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال] أى : شديد الحول والقوة ، فلا يريد شيئا إلا فعله ، ولا يتعاصى عليه شيء ، ولا يفوته هارب .

فإذا كان هو وحده ، الذى يسوق للعباد الأمطار والسحب ، التى فيها مادة أرزاقهم ، وهو الذى يدبر الأمور ، وتخضع له المخلوقات العظام ، التى يخاف منها ، وتزعج العباد ، وهو شديد القوة — فهو الذى يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له .

ولهذا قال : [له دعوة الحق] إلى [إلا فى ضلال] .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ

* [له] أى : لله وحده [دعوة الحق] وهى : عبادته وحده لاشريك له وإخلاص دعاء العبادة ، ودعاء المسألة له تعالى .

أى : هو الذى ينبغى أن يصرف له الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والحب ، والرغبة ، والرهبة ، والإنابة ، لأن ألوهيته ، هى الحق ، وألوهية غيره ، باطلة .

[والذين يدعون من دونه] من الأوثان ، والأنداد ، التى جعلوها شركاء لله .

[لا يستجيبون لهم] أى : لمن يدعوها ويعبدها ، بشىء قليل ولا كثير ، لامن أمور الدنيا ، ولا من أمور الآخرة .

[إلا كباسط كفيه إلى الماء] الذى لاتناله كفاه لبعده .

[ليبلغ] ببسط كفيه إلى الماء [فاه] ، فإنه عطشان ، ومن شدة عطشه ، يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه ، فلا يصل إليه .

كذلك الكفار ، الذين يدعون مع الله آلهة ، لا يستجيبون لهم بشىء ، ولا ينفعونهم فى أشد الأوقات إليهم حاجة ، لأنهم فقراء ، كما أن من دعوهم فقراء ، لايملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ومالهم فيها من شرك ، وماله منهم من ظهير .

وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

[وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال] لبطلان ما يدعون من دون الله .

فبطلت عبادتهم ودعاؤهم ، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها .

ولما كان الله تعالى ، هو الملك الحق المبين ، كانت عبادته حقا ، متصلة النفع بصاحبها فى الدنيا والآخرة .

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله ، بالذى يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة .

فإن ذلك تشبيه بأمر محال ، فكما أن هذا محال ، فالمشبه به محال .

والتعليق على المحال ، من أبلغ ما يكون فى نفى الشيء كما قال تعالى « إن الذين كفروا وكذبوا بآياتنا لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

* أى : جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها ، خاضعة لربها ، تسجد له [طوعا وكرها] .

فالطوع لمن يأتى بالسجود والخضوع ، اختياراً ، كالمؤمنين .

والكره ، لمن يستكبر عن عبادة ربه ، وحاله وفطرته ، تكذبه فى ذلك .

[وظلالهم بالغدو والآصال] أى : وتسجد له ظلال المخلوقات ، أول النهار وآخره ، وسجود كل شيء ، بحسب حاله كما قال تعالى :

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .

۞ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها ، كان هو الإله حقا ، المعبود المحمود حقا ، والإلاهية غيره باطلة .

ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله : [قل من رب السموات] إلى [الواحد القهار] .

* أى : قل لهؤلاء المشركين به ، أوثانا وأنداداً ، يحبونها كما يحبون الله ، ويبذلون لها أنواع التقربات والعبادات : أفتاهت عقولكم ، حتى اتخذتم من دونه أولياء ، تتولونهم بالعبادة ، وليسوا بأهل لذلك ؟

فإنهم [لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا] ، وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات ، المالك للأحياء والأموات ، الذى بيده الخلق والتدبير ، والنفع والضر ؟

فما تستوى عبادة الله وحده ، وعبادة المشركين به .

[قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور] ؟ فإن كان عندهم شك واشتباه ، وجعلوا له شركاء ، زعموا أنهم خلقوا كخلقه ، وفعلوا كفعله ، فَأَزِلْ عنهم هذا الاشتباه واللبس ، بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية .

فقل لهم : [الله خالق كل شىء] فإنه من المحال أن يخلق شىء من الأشياء نفسه .

لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ

ومن المحال أيضاً ، أن يوجد من دون خالق .

فتعين أن لها إلهاً خالقاً ، لا شريك له فى خلقه ، لأنه الواحد القهار .

فإنه لا توجد الوحدة والقهر ، إلا لله وحده .

فالمخلوقات وكل مخلوق ، فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر ، قاهر أعلى منه ، حتى ينتهى القهر للواحد القهار .

فالقهر والتوحيد ، متلازمان ، متعينان لله وحده .

فتبين بالدليل العقلى القاهر ، أن ما يُدْعَى من دون الله ، ليس له شىء من خلق المخلوقات ، وبذلك كانت عبادته باطلة .

* شبه تعالى الهدى ، الذى أنزل على رسوله لحياة القلوب والأرواح ، بالماء الذى أنزله لحياة الأشباح .

وشبه ما فى الهدى من النفع العام الكثير ، الذى يضطر إليه العباد ، بما فى المطر من النفع العام الضرورى .

وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها ، بالأودية التى تسيل فيها السيول .

فوادٍ كبير ، يسع ماء كثيرا ، كقلب كبير ، يسع علماً كثيرا .

ووادٍ صغير ، يأخذ ماء قليلا ، كقلب صغير ، يسع علما قليلا ، وهكذا .

حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ

وشبه ما يكون فى القلوب من الشهوات والشبهات ،عندوصول الحق إليها ، بالزبد الذى يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافى ، والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق ، وإيثاره ، والرغبة فيه .

فالباطل يذهب ويمحقه الحق [إن الباطل كان زهوقاً] .

وقال هنا : [كذلك يضرب الله الأمثال] ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال .

* لما بيَّن تعالى ، الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين : مستجيب لربه ، فذكر ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال :

[للذين استجابوا لربهم] أى: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهى ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريده منهم .

فلهم [الحسنى] أى : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

فلهم من الصفات أجَلُّها ، ومن المناقب أفضلها . ومن الثواب العاجل والآجل ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[والذين لم يستجيبوا له] بعد ما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ، لهم الحالة غير الحسنة .

و[لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً] من ذهب وفضة وغيرها .

[ومثله معه لافتدوا به] من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وأنَّى لهم ذلك ؟ ! ! .

[أولئك لهم سوء الحساب] ، وهو الحساب الذى يأتى على كل ما أسلفوه ، من عمل سىء ، وما ضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك ، وسطر عليهم ، وقالوا : « ياويلتنا مال هذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

[و] بعد هذا الحساب السىء [مأواهم جهنم] الجامعة لكل عذاب ، من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ،والزقوم،والزمهرير ، والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب .

[وبئس المهاد] أى : المقر ، والمسكن ، مسكنهم .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ

---

* يقول تعالى : مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم :

[أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق] ففهم ذلك ، وعمل به .

[كمن هو أعمى] لا يعلم الحق ، ولا يعمل به ، فبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض .

فحقيق بالعبد ، أن يتذكر ويتفكر ، أيُّ الفريقين ، أحسن حالا ، وخير مآلا ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها .

ولكن ما كل أحد ، يتذكر ما ينفعه ويضره .

[إنما يتذكر أولو الألباب] أى : أولو العقول الرزينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم ، لُبُّ العالم ، وصفوة بنى آدم .

فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

[الذين يوفون بعهد الله] الذى عهده إليهم ، والذى عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها ، توفيتها حقها ، من التنمية لها، والنصح فيها .

[و] تمام الوفاء بها ، أنهم [لا ينقضون الميثاق] أى : العهد الذى عاهدوا الله عليه .

فدخل فى ذلك ، جميع المواثيق والعهود ، والأَيْمَانُ والنذور ، التى يعقدها العباد .

وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا

فلا يكون العبد من أولى الألباب ، الذين لهم الثواب العظيم ، إلا بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

[والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل] وهذا عام فى كل ما أمر الله بوصله ، من الإيمان به ، وبرسوله ، ومحبته ، ومحبة رسوله ، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوقهم .

ويصلون الأقارب والأرحام ، بالإحسان إليهم ، قولا وفعلا .

ويصلون ما بينهم وبين الأزواج ، والأصحاب ، والمماليك، بأداء حقهم، كاملا موفراً ، من الحقوق الدينية والدنيوية .

والسبب الذى يجعل العبد واصلا ما أمر الله به ، أن يوصل خشية الله، وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال :

[ويخشون ربهم] أى : يخافونه ، فيمنعهم خوفهم منه ، ومن القدوم عليه يوم الحساب ، أن يتجرأوا على معاصى الله ، أو يقصروا فى شىء مما أمر الله به ، خوفا من العقاب ، ورجاء للثواب .

[والذين صبروا] على المأمورات بامتثالها ، وعن المنهيات بالانكفاف عنها ، والبعد منها ، وعلى أقدار الله المؤلمة ، بعدم تسخطها .

وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾

ولـكن بشرط أن يكون ذلك الصبر [ابتغاء وجه ربهم] لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة ، فإن هذا هو الصبر النافع ، الذى يحبس به العبد نفسه ، طلباً لمرضاة ربه ، ورجاء للقرب منه .

والحظوة بثوابه ، هو الصبر الذى من خصائص أهل الإيمان .

وأما الصبر المشترك ، الذى غايته التجلد ، ومنتهاه ، الفخر ،فهذا يصدر من البر والفاجر ، والمؤمن والـكافر ، فليس هو الممدوح ، على الحقيقة .

[وأقاموا الصلاة] بأركانها ، وشروطها ، ومكملاتها ، ظاهراً وباطناً .

[وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية] دخل فى ذلك ، النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والـكفارات ، والنفقات المستحبة ، وأنهم ينفقون ، حيث دعت الحاجة إلى النفقة ، سرا وعلانية .

[ويدرأون بالحسنة السيئة] أى : من أساء إليهم ، بقول أو فعل ، لم يقابلوه بفعله ، بل قابلوه بالإحسان إليه .

فيعطون من حرمهم ، ويعفون عمن ظلمهم ، ويصلون من قطعهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم .

وإذا كانوا يقابلون المسىء بالإحسان ، فما ظنك بغير المسىء ؟ !

[أولئك] الذين وصفت صفاتهم الجليلة ، ومناقبهم الجميـلة [لهم عقبى الدار] .

فسرها بقوله : [جنات عـدن] أى : إقامة ، لا يزولون منها ، ولا يبغون عنها حِوَلاً ، لأنهم يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم ، والسرور ، الذى تنتهى إليه المطالب والغايات .

جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم ، أنهم [يدخلونها ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم] من الذكور والإناث وكذلك النظراء والأشباه ، والأصحاب ، والأحباب ، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم.

[والملائكة يدخلون عليهم من كل باب] يهنئونهم بالسلامة ، وكرامة الله لهم ويقولون :

[سلام عليكم] أي : حلَّتْ عليكم السلامة والتحية من الله ، حصلت لكم .

وذلك متضمن لزوال كل مكروه ، ومستلزم لحصول كل محبوب .

[بما صبرتم] أي : بسبب صبركم ، وهو الذى أوصلكم إلى هذه المنازل العالية ، والجنان الغالية .

[فنعم عقبى الدار] فحقيق بمن نصح نفسه ، وكان لها عنده قيمة ، أن يجاهدها ، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب .

ولعلها تحظى بهذه الدار ، التى هى منية النفوس ، وسرور الأرواح ، الجامعة لجميع اللذات والأفراح .

فلمثلها ، فليعمل العاملون ، وفيها ، فليتنافس المتنافسون .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* لما ذكر حال أهل الجنة ، ذكر أن أهل النار ، بعكس ما وصفهم به فقال عنهم :

[الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه] أى : من بعد ما أكده عليهم على أيدى رسله ، وغلظ عليهم ، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم ، بل قابلوه بالإعراض والنقض .

[ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل] فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح ، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق ، بل أفسدوا فى الأرض ، بالكفر والمعاصى ، والصد عن سبيل الله ، وابتغائها عوَجاً .

[أولئك لهم اللعنة] أى البعد والذم ، من الله وملائكته ، وعباده المؤمنين .

[ولهم سوء الدار] وهى : الجحيم ، بما فيها من العذاب الأليم .

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ

---

* أى : هو وحده ، يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ، ويقدره ويضيقه على من يشاء .

[وفرحوا] أى : الكفار [بالحياة الدنيا] فرحاً ، أوجب لهم أن يطمئنوا بها ، ويغفلوا عن الآخرة ، وذلك لنقصان عقولهم .

[وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع] أى : شىء حقير ، يتمتع به قليلا ، ويفارق أهله وأصحابه ، ويعقبهم ويلا طويلا .

* يخبر تعالى ، أن الذين كفروا بآيات الله ، يتعنتون على رسول الله ، ويقترحون ويقولون :

[لولا أنزل عليه آية من ربه] وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا ، فأجابهم الله بقوله :

[قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب] أى : طلب رضوانه .

فليست الهداية والضلال بأيديهم ، حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات.

ومع ذلك ، فهم كاذبون ، فلو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون .

ولا يلزم أن يأتى الرسول ، بالآية ، التى يعينونها ، ويقترحونها ، بل إذا جاءهم بآية ، وتبين ما جاء به من الحق ، كفى ذلك ، وحصل المقصود ، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التى يعينونها .

فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا بها ، لعاجلهم العذاب .

ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال : [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله] أى : يزول قلقها واضطرابها ، وتحضرها أفراحها ولذاتها .

[ألا بذكر الله تطمئن القلوب] أى : حقيق بها ، وحَرِىٌ أن لا تطمئن لشىء سوى ذكره ، فإنه لا شىء ألذ للقلوب ولا أحلى ، من محبة خالقها ، والأنس به ومعرفته .

وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له ، يكون ذكرها له .

هذا على القول بأن ذكر الله ، هو ذكر العبد لربه ، من تسبيح ، وتهليل ، وتكبير وغير ذلك .

وقيل : إن المراد بذكر الله ، كتابه ، الذى أنزله ، ذكرى للمؤمنين .

فعلى هذا ، معنى طمأنينة القلب بذكر الله : أنها حين تعرف معانى القرآن وأحكامه ، تطمئن لها ، فإنها تدل على الحق المبين ، المؤيد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ، فإنها لا تطمئن القلوب ، إلا باليقين والعلم ، وذلك فى كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها .

وأما ما سواه من الكتب ، التي لا ترجع إليه ، فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة ، وتضاد الأحكام .

ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله ، وتدبره ، وتدبر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيما .

ثم قال تعالى : [الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : آمنوا بقلوبهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وصدقوا هذا الإيمان ، بالأعمال الصالحة ، أعمال القلوب ، كمحبة الله ، وخشيته . ورجائه ، وأعمال الجوارح ، كالصلاة ونحوها .

[طوبى لهم وحسن مآب] أى : لهم حالة طيبة ، ومرجع حسن .

وذلك بما ينالون ، من رضوان الله وكرامته ، فى الدنيا والآخرة ، وأن لهم كمال الراحة ، وتمام الطمأنينة .

ومن جملة ذلك ، شجرة طوبى ، التي فى الجنة ، التي يسير الراكب فى ظلها ، مائة عام ما يقطعها ، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [كذلك أرسلناك] إلى قومك تدعوهم إلى الهدى .

[فى أمة قد خلت من قبلها أمم] أرسلنا فيهم رسلنا .

فلست ببدع من الرسل ، حتى يستنكروا رسالتك .

ولست تقول من تلقاء نفسك .

بل تتلو عليهم آيات الله ، التى أوحاها الله إليك ، التى تطهر القلوب ، وتزكى النفوس .

والحال أن قومك ، يكفرون بالرحمن ، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه ــ التى أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا ، وأنزلنا عليك كتاباً ــ بالقبول والشكر ، بل قابلوها بالإنكار والرد .

فلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم ، من القرون المكذبة ، كيف أخذهم الله بذنوبهم .

[قل هو ربى لا إله إلا هو] وهذا متضمن التوحيدين ؛ توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

فهو ربى ، الذى ربانى بنعمه ، منذ أوجدنى ، وهو إلهى الذى [عليه توكلت] فى جميع أمورى [وإليه أنيب] أى : أرجع فى جميع عباداتى ، وفى حاجاتى .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة —:

[ولو أن قرآناً] من الكتب الإلهية [سيرت به الجبال] عن أماكنها [وقطعت به الأرض] جناناً وأنهاراً [وكلم به الموتى] لكان هذا القرآن.

[بل لله الأمر جميعاً] فيأتى بالآيات ، التى تقتضيها حكمته .

فما بال المكذبين ، يقترحون من الآيات — ما يقترحون ؟

فهل لهم ولغيرهم من الأمر شيء ؟ .

[أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً] فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعاً ، ولكن لا يشاء ذلك ، بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

[ولا يزال الذين كفروا] على كفرهم ، لا يعتبرون ، ولا يتعظون .

والله تعالى يوالى عليهم القوارع ، التى تصيبهم فى ديارهم ، أو تحل قريباً منها ، وهم مصرون على كفرهم [حتى يأتى وعد الله] الذى وعدهم به ، لنزول العذاب المتصل ، الذى لا يمكن رفعه .

[إن الله لا يخلف الميعاد] وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ، ما وعدهم الله به على كفرهم ، وعنادهم ، وظلمهم .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ

يقول تعالى لرسوله — مثبتاً له ، ومسلياً —

[ولقد استهزىء برسل من قبلك] فلست أول رسول ، كُذِّب وأُوذِى

[فأمليت للذين كفروا] برسلهم ، أى : أمهلتهم مدة ، حتى ظنوا أنهم غير معذبين .

[ثم أخذتهم] بأنواع العذاب [فكيف كان عقاب] كان عقابا شديداً ، وعذابا أليما .

فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك ، واستهزأوا بك ، بإمهالنا فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم ، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك .

* يقول تعالى : [أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت] بالجزاء العاجل والآجل ، بالعدل والقسط ، وهو : الله تبارك وتعالى ، كمن ليس كذلك ؟

ولهذا قال : [وجعلوا لله شركاء] وهو الله الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لا شريك له ، ولا نِدّ ولا نظير .

[قل] لهم ، إن كانوا صادقين : سموهم] لنعلم حالهم .

[أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض] فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة ، وهو لا يعلم له شريكا ، علم بذلك ، بطلان دعوى الشريك له وأنكم بمنزلة

مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الذى يُعَلِّمُ الله أن له شريكا ، وهو لايعلمه ، وهذا أبطل ما يكون ، ولهذا قال : [أم بظاهر من القول] أى : غاية ما يمكن من دعوى الشريك له تعالى ، أنه بظاهر أقوالكم .

وأما فى الحقيقة ، فلا إله إلا الله ، وليس أحد من الخلق ، يستحق شيئاً من العبادة .

[بل زين للذين كفروا مكرهم] الذى مكروه، وهو كفرهم، وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله .

[وصدوا عن السبيل] أى : عن الطريق المستقيمة ، الموصلة إلى الله ، وإلى دار كرامته .

[ومن يضلل الله فما له من هاد] لأنه ليس لأحد من الأمر شىء .

[لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق] من عذاب الدنيا ، لشدته ودوامه .

[ومالهم من الله من واق] يقيهم من عذابه ، فعذابه إذا وجهه إليهم ، لامانع منه .

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ

---

* يقول تعالى : [مثل الجنة التى وعد المتقون] الذين تركوا ما نهاهم الله عنه ، ولم يقصروا فيما أمرهم به ، أى صفتها وحقيقتها [تجرى من تحتها الأنهار] أنهار العسل ، وأنهار الخمر ، وأنهار اللبن ، وأنهار الماء التي تجرى فى غير أخدود .

فتسقى تلك البساتين ، والأشجار ، فتحمل جميع أنواع الثمار .

[أكلها دائم وظلها] دائم أيضاً .

[تلك عقبى الذين اتقوا] أى : مآلهم وعاقبتهم ، التى إليها يصيرون .

[وعقبى الكافرين النار] فكم بين الفريقين من الفرق المبين ؟ ! !

* يقول تعالى: [والذين أتيناهم الكتاب] أى : مننّا عليهم به وبمعرفته .

[يفرحون بما أنزل إليك] فيؤمنون به ، ويصدقونه ، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض ، وتصديق بعضها بعضاً ، وهذه حال من آمن ، من أهل الكتاب .

[ومن الأحزاب من ينكر بعضه] أى : ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق ، من ينكر بعض هذا القرآن ، ولا يصدقه .

وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

« فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » إنما أنت يامحمد منذر ، تدعوا إلى الله .

[قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به] أى : بإخلاص الدين لله وحده .

[إليه أدعو وإليه مآب] أى : مرجعى الذى أرجع به إليه، فيجازينى بما قمت به من الدعوة ، إلى دينه ، والقيام بما أمرت به .

* أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ، حكماً عربيا ، أى : محكماً متقنا ، بأوضح الألسنة ، وأفصح اللغات ، لئلا يقع فيه شك واشتباه ، وليوجب أن يتبع وحده ، ولا يداهن فيه ، ولايتبع ما يضاده ويناقضه ، من أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا توعد رسوله ـ مع أنه معصوم ـ ليمتن عليه بعصمته ، وليكون لأمته أسوة فى الأحكام ، فقال : [ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم] البين الذى ينهاك عن اتباع أهوائهم .

[مالك من الله من ولى] يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب .

[ولا واق] يقيك من الأمر المكروه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ

---

* أى : لست أول رسول أرسل إلى الناس ، حتى يستغربوا رسالتك .

[ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية] فلا يعيبك أعداؤك ، بأن يكون لك أزواج وذرية ، كما كان لإخوانك المرسلين .

فلأى شيء يقدحون فيك بذلك ؟ وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم .

وإن طلبوا منك آية اقترحوها ، فليس لك من الأمر شيء .

[وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله] والله لا يأذن فيها ، إلا فى وقتها الذى قدره وقضاه .

[لكل أجل كتاب] لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه .

فليس استعجالهم بالآيات أو العذاب ، موجبا ، لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر ، مع أنه تعالى فعال لما يريد .

[يمحو الله ما يشاء] من الأقدار [ويثبت] ما يشاء منها ، وهذا المحو والتغيير ، فى غير ماسبق به علمه ، وكتبه قلمه ، فإن هذا لايقع فيه تبديل ولا تغيير ، لأن ذلك محال على الله ، أن يقع فى علمه نقص ، أوخلل ، ولهذا قال :

أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ

[وعنده أم الكتاب] أى : اللوح المحفوظ ، الذى ترجع إليه سائر الأشياء ، فهو أصلها ، وهى فروع وشعب .

فالتغيير والتبديل ، يقع فى الفروع والشعب ، كأعمال اليوم والليلة ، التى تكتبها الملائكة ، ويجعل الله لثبوتها أسباباً ، ولمحوها أسبابا ، لاتتعدى تلك الأسباب ، ما رسم فى اللوح المحفوظ .

كما جعل الله البر ، والصلة ، والإحسان ، من أسباب طول العمر ، وسعة الرزق .

وكما جعل المعاصى ، سببا لمحق بركة الرزق والعمر .

وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب ، سببا للسلامة .

وجعل التعرض لذلك ، سبباً للعطب .

فهو الذى يدبر الأمور ، بحسب قدرته وإرادته .

ومايدبره منها ، لايخالف ما قد علمه وكتبه ، فى اللوح المحفوظ .

* يقول تعالى ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لا تعجل عليهم ، بإصابة ما يوعدون من العذاب .

فهم ، إن استمروا على طغيانهم وكفرهم ، فلابد أن يصيبهم ما وعدوا به .

[إما نرينك] إياه فى الدنيا ، فتقر بذلك عينك .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد ، ولا سبيل إلى القدح فيها .

[أو نتوفينك] قبل إصابتهم ، فليس ذلك شغلا لك [فإنما عليك البلاغ] والتبيين للخلق .

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

[وعلينا الحساب] فنحاسب الخلق على ما قاموا به ، بما عليهم ، أو ضيعوه ، ونثيبهم أو نعاقبهم .

ثم قال — متوعداً للمكذبين — [أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها] : قيل بإهلاك المكذبين ، واستئصال الظالمين .

وقيل : بفتح بلدان المشركين ، ونقصهم فى أموالهم وأبدانهم ، وقيل غير ذلك من الأقوال .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بذلك ، أن أراضى هؤلاء المكذبين جعل الله ، يفتحها ويجتاحها ، ويحل القوارع بأطرافها ، تنبيها لهم قبل أن يجتاحهم النقص ، ويوقع الله بهم من القوارع ، مالا يرده أحد .

ولهذا قال : [والله يحكم لا معقب لحكمه] ويدخل فى هذا ، حكمه الشرعى ، والقدرى والجزائى .

فهذه الأحكام ، التى يحكم الله فيها ، توجد فى غاية الحكمة والإتقان ، لاخلل فيها ولا نقص .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد ، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها .

بخلاف حكم غيره ، فإنه قد يوافق الصواب ، وقد لا يوافقه .

[وهو سريع الحساب] أى : فلا يستعجلوا بالعذاب ، فإن كل ما هو آت ، فهو قريب .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى

---

* يقول تعالى : [وقد مكر الذين من قبلهم] برسلهم ، وبالحق الذى جاءت به الرسل ، فلم يغن عنهم مكرهم ، ولم يصنعوا شيئاً ، فإنهم يحاربون الله ويبارزونه .

[فلله المكر جميعاً] أى : لايقدر أحد أن يمكر مكراً إلا بإذنه ، وتحت قضائه وقدره .

فإذا كانوا يمكرون بدينه ، فإن مكرهم ، سيعود عليهم بالخيبة والندم .

فإن الله [يعلم ما تكسب كل نفس] أى : هومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة .

والمكر ، لابد أن يكون من كسبها ، فلا يخفى على الله مكرهم .

فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ، ويفيدهم شيئاً .

[وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار] أى : ألهم أو لرسله ؟

ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين ، لا للكفر وأهله .

[ويقول الذين كفروا لست مرسلا] أى : يكذبونك ، ويكذبون ما أرسلت به .

[قل] لهم — إن طلبوا على ذلك شهيداً : [كفى بالله شهيداً بينى وبينكم] وشهادته بقوله وفعله وإقراره .

أما قوله ، فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه ، مما يثبت به رسالته .

وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وأما فعله ، فلأن الله تعالى أيد رسوله ، ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه ، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد .

وأما إقراره ، فإنه أخبر الرسول عنه ، أنه رسول ، وأنه أمر الناس باتباعه .

فمن اتبعه ، فله رضوان الله وكرامته .

ومن لم يتبعه ، فله النار والسخط ، وحل له ماله ودمه ، والله يقره على ذلك ، فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لعاجله بالعقوبة .

[ومن عنده علم الكتاب] وهـذا شامل لكل علماء أهل الكتابين .

فإنهم يشهد منهم للرسول ، من آمن ، واتبع الحق ، فصرح بتلك الشهادة التى عليه .

ومن كتم ذلك ، فإخبار الله عنه ، أن عنده شهادة ، أبلغ من خبره .

ولو لم يكن عنده شهادة ، لرد استشهاده بالبرهان .

فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب ، لأنهم أهل هذا الشأن .

وكل أمر ، إنما يستشهد فيه أهله ، ومن هم أعلم به من غيرهم .

بخلاف من هو أجنبى عنه ، كالأميين ، من مشركى العرب وغيرهم ، فلا فائدة فى استشهادهم ، لعدم خبرتهم ومعرفتهم . والله أعلم .

تم تفسير سورة الرعد — والحمد لله رب العالمين

تفســـــير

سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ

---

* يخبر تعالى ، أنه أنزل كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، لنفع الخلق ، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة،وأنواع المعاصى ، إلى نور العلم والإيمان ، والأخلاق الحسنة .

وقوله [بإذن ربهم] أى : لايحصل منهم المراد المحبوب لله ، إلا بإرادة من الله ومعونة .

ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذى يهديهم إليه هذا الكتاب ، فقال :

[إلى صراط العزيز الحميد] أى : الموصل إليه وإلى دار كرامته ، المشتمل على العلم بالحق والعمل به .

وفى ذكر « العزيز الحميد » بعد ذكر الصراط الموصل إليه ، إشارة إلى أن من سلكه ، فهو عزيز بعزة الله ، قوى ، ولو لم يكن له أنصار إلا الله ، محمود فى أموره ، حسن العاقبة .

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

وليدل ذلك على أن صراط الله ، من أكبر الأدلة على ما لله ، من صفات الكمال ، ونعوت الجلال .

وأن الذى نصبه لعباده ، عزيز السلطان ، حميد ، فى أقواله ، وأفعاله ، وأحكامه .

وأنه مألوه معبود بالعبادات ، التى هى منازل الصراط المستقيم .

وأنه كما أن له ملك السموات والأرض ، خلقا ورزقا ، وتدبيراً ، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية ، لأنهم ملكه ، ولايليق به أن يتركهم سدى .

فلما بين الدليل والبرهان ، توعد من لم ينقد لذلك فقال :

[وويل للكافرين من عذاب شديد] لايقدر قدره ، ولا يوصف أمره.

ثم وصفهم بأنهم [الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة] فرضوا بها ، واطمأنوا ، وغفلوا عن الدار الآخرة .

[ويصدون] الناس [عن سبيل الله] التى نصبها لعباده ، وبينها فى كتبه ، وعلى ألسنة رسله ، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة .

[ويبغونها] أي : سبيل الله [عوجاً] أى : يحرصون على تهجينها وتقبيحها ، للتنفير منها ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

[أولئك] الذين ذكر وصفهم [في ضلال بعيد] لأنهم ضلوا، وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهم. فأى ضلال أبعد من هذا ؟ ! ! .

وأما أهل الإيمان، فعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبغون استقامتها .

* وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا، إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به .

بخلاف مالو أتى على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى تلك اللغة، التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه .

فإذا بين الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله، فيضل الله من يشاء، ممن لم ينقد للهدى، ويهدى من يشاء، ممن اختصه برحمته .

وهو العزيز الحكيم، الذى — من عزته — أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء .

ومن حكمته، أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله، إلا بالمحل اللائق به .

ويستدل بهذه الآية الكريمة، على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا

إلا إذا كان الناس فى حالة ، لا يحتاجون إليها ، وذلك إذا تمرنوا على العربية ، ونشأ عليها صغيرهم ، وصارت طبيعة لهم ، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ، ابتداء ، كما تلقى الصحابة رضى الله عنهم .

* يخبر تعالى : أنه أرسل موسى بآياته العظيمة ، الدالة على صدق ما جاء به وصحته ، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم .

[أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور] أى : ظلمات الجهل والكفر وفروعه ، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه .

[وذكرهم بأيام الله] أى : بنعمه عليهم ، وإحسانه إليهم وبأيامه فى الأمم المكذبين ، ووقائعه بالكافرين ، ليشكروا نعمه ، وليحذروا عقابه .

[إن فى ذلك] أى : فى أيام الله على العباد [لكل صبار شكور] أى : صبار فى الضراء والعسر والضيق ، شكور على السراء والنعمة .

فإنه يستدل بأيامه ، على كمال قدرته ، وعميم إحسانه ، وتمام عدله وحكمته .

ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فذكرهم نعم الله فقال : [اذكروا نعمة الله عليكم] أى : بقلوبكم وألسنتكم .

نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ

[إذا أنجاكم من آل فرعون يسومونكم] أى : يولونكم[1] [سوء العذاب] أى أشده ، وفسر ذلك بقوله :

[ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم] أى : يبقونهن فلا يقتلونهن .

[وفى ذلكم] الإنجاء [بلاء من ربكم عظيم] أى : نعمة عظيمة .

أو فى ذلكم العذاب ، الذى ابتليتم به من فرعون وملأه ابتلاء من الله عظيم لكم ، لينظر هل تعتبرون أم لا ؟

وقال لهم — حاثا على شكر نعم الله — : [وإذ تأذن ربكم] أى أعلم ووعد .

[لئن شكرتم لأزيدنكم] من نعمى [ولئن كفرتم إن عذابى لشديد] ومن ذلك ، أن يزيل عنهم النعمة ، التى أنعم بها عليهم .

والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله ، والثناء على الله بها ، وصرفها فى مرضاة الله تعالى ، وكفر النعمة ، ضد ذلك .

---

(١) قوله : (يولونكم) تعبير فيه إبهام ولو قال (يذيقونكم أو يكلفونكم) لكان أوضح ولأن الذين شرحوا معانى مفردات القرآن فسروا « يسومونكم » بـ « يذيقونكم » أو « يكلفونكم » .

إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم

[وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً] فلن تضروا الله شيئا .

[فإن الله لغنى حميد] فالطاعات لا تزيد فى ملكه ، والمعاصى ، لا تنقص .

وهو كامل الغنى ، حميد فى ذاته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله .

ليس له من الصفات ، إلا كل صفة حمد وكمال .

ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن .

ولا من الأفعال ، إلا كل فعل جميل .

* يقول تعالى — مخوفا عباده ، ما أحله بالأمم المكذبة ، حين جاءتهم الرسل ، فكذبوهم ، فعاقبهم بالعقاب العاجل ، الذى رآه الناس وسمعوه فقال: [ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود] .

وقد ذكر الله قصصهم فى كتابه ، وبسطها .

[والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله] من كثرتهم ، وكون أخبارهم اندرست .

بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن

فهؤلاء كلهم [جاءتهم رسلهم بالبينات] أى : بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به .

فلم يرسل الله رسولا ، إلا أتاه من الآيات ، ما يؤمن على مثله البشر .

فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها ، بل استكبروا عنها .

[فردوا أيديهم فى أفواههم] أي : لم يؤمنوا بما جاءوا به ، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله [جعلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت] .

[وقالوا] صريحا لرسلهم : [إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب] أى : موقع فى الريبة ، وقد كذبوا فى ذلك وظلموا .

ولهذا [قالت] لهم [رسلهم أفى الله شك] أى : فإنه أظهر الأشياء وأجلاها .

فمن شك فى الله [فاطر السموات والأرض] الذى وجود الأشياء مستند إلى وجوده ، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ، حتى الأمور المحسوسة .

ولهذا خاطبتهم الرسل ، خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه .

[يدعوكم] إلى منافعكم ومصالحكم [ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى] أى : ليثيبكم على الاستجابة لدعوته ، بالثواب العاجل

ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ

والآجل ، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم ، بل النفع عائد إليكم .

فردوا على رسلهم ، رد السفهاء الجاهلين [وقالوا] لهم : [إن أنتم إلا بشر مثلنا] أى : فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة .

[تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا] فكيف نترك رأى الآباء وسيرتهم ، لرأيكم ؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا ؟

[فأتونا بسلطان مبين] أى : بحجة وبينة ظاهرة .

ومرادهم بينة يقترحونها هم ، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات .

[قالت لهم رسلهم] مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم : [إن نحن إلا بشر مثلكم] أى : صحيح وحقيقة ، إنّا بشر مثلكم .

[ولكن] ليس فى ذلك ، مايدفع ما جئنا به من الحق ، فإن [الله يمن على من يشاء من عباده] فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته ، فذلك فضله وإحسانه ، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله .

فانظروا ما جئناكم به ، فإن كان حقاً ، فاقبلوه ، وإن كان غير ذلك ، فردوه ولا تجعلوا حالنا ، حجة لكم على رد ما جئناكم به .

وقولكم : « فائتونا بسلطان مبين » فإن هذا ليس بأيدينا ، وليس لنا من الأمر شيء .

ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ

[وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله] فهو الذى إن شاء جاءكم به وإن شاء، لم يأتكم به ، وهو لايفعل إلا ما هو متقضى حكمته ورحمته .

[وعلى الله] لاعلى غيره [فليتوكل المؤمنون] فيعتمدون عليه فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم ، لعلمهم بتمام كفايته ، وكمال قدرته ، وعميم إحسانه .

ويثقون به ، فى تيسير ذلك ، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم .

فعلم بهذا ، وجوب التوكل ، وأنه من لوازم الإيمان ، ومن العبادات الكبار ، التى يحبها الله ويرضاها ، لتوقف سائر العبادات عليه .

[وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا] أى : أى شىء يمنعنا من التوكل على الله ، والحال ، أننا على الحق والهدى .

ومن كان على الحق والهدى ، فإن هداه ، يوجب له تمام التوكل .

وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدى وكفايته ، يدعو إلى ذلك .

بخلاف من لم يكن على الحق والهدى ، فإنه ليس ضامنا على الله ، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل .

أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

وفى هذا كالإشارة من الرسل ، عليهم الصلاة والسلام لقومهم ، بآية عظيمة .

وهو أن قومهم — فى الغالب — أن لهم القهر والغلبة عليهم .

فتحدتهم رسلهم ، بأنهم متوكلون على الله ، فى دفع كيدهم ومكرهم ، وجازمون بكفايته إياهم .

وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم ، وإطفاء مامعهم من الحق .

فيكون هذا ، كقول نوح لقومه : « ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون » الآيات .

وقول هود عليه السلام « إنى أشهد الله واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون » .

[ولنصبرن على ما آذيتمونا] أى : ولنستمرن على دعوتكم ، ووعظكم ، وتذكيركم ، ولا نبالى بما يأتينا منكم ، من الأذى ، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى ، احتسابا للأجر ، ونصحا لكم ، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير .

[وعلى الله] وحده لا على غيره [فيتوكل المتوكلون] فإن التوكل عليه ، مفتاح لكل خير .

واعلم أن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، توكلهم فى أعلى المطالب وأشرف المراتب ، وهو التوكل على الله ، فى إقامة دينه ونصره ، وهداية عبيده ، وإزالة الضلال عنهم ، وهذا أكمل ما يكون من التوكل .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

---

* لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال، مع قومهم فقال:

[وقال الذين كفروا لرسلهم] متوعدين لهم — [لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا] وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم، مطمع.

لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدوهم بالإخراج من ديارهم ونسبوها إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل، لاحق لهم فيها.

وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك، وخرج من التبعة.

ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصى، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له .

فعلم أن أعداء الرسل فى الحقيقة، ليس لهم شىء من الأرض، التى توعدوا الرسل بإخراجهم منها .

وإن رجعنا إلى مجرد العادة، فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم .

فلأى شىء يمنعونهم حقاً لهم، صريحا واضحا؟!

هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال ، ما بقى حينئذ ، إلا أن يمضى الله أمره ، وينصر أولياءه .

[فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين] بأنواع العقوبات .

[ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك] أى : العاقبة الحسنة التى جعلها الله للرسل ومن تبعهم ، جزاء [لمن خاف مقامى] عليه فى الدنيا ، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه .

[وخاف وعيد] أى : ما توعدت به من عصانى ، فأوجب له ذلك ، الانكفاف عما يكرهه الله ، والمبادرة إلى ما يحبه الله .

[واستفتحوا] أى : الكفار ، أى : هم الذين طلبوا ، واستعجلوا فتح الله وفرقانه ، بين أوليائه وأعدائه ، فجاءهم ما استفتحوا به ، وإلا فالله عليم حليم ، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة .

[وخاب كل جبار عنيد] أى : خسر فى الدنيا والآخرة ، من تجبر على الله وعلى الحق ، وعلى عباد الله ، واستكبر فى الأرض ، وعاند الرسل ، وشاقّهم .

[من ورائه جهنم] أى : جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد ، فلابد له من ورودها ، فيذاق حينئذ العذاب الشديد .

[ويسقى من ماء صديد] فى لونه ، وطعمه ، ورائحته الخبيثة ، وهو فى غاية الحرارة .

يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ

[يتجرعه] من العطش الشديد [ولا يكاد يسيغه] فإنه إذا قرب إلى وجهه ، شواه ، وإذا وصل إلى بطنه ، قطع ما أتى عليه من الأمعاء .

[ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت] أى : يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب ، وكل نوع منه ، من شدته يبلغ إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى :

« لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * «وهم يصطرخون فيها » .

[ومن ورائه] أى : الجبار العنيد [عذاب غليظ] أى : قوى شديد ، لا يعلم وصفه وشدته ، إلا الله تعالى .

* يخبر تعالى عن أعمال الكفار التى عملوها : إما أن المراد بها ، الأعمال التى عملوها لله ، بأنها فى ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد ، الذى هو أدق الأشياء وأخفها ، إذا اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل .

فكذلك أعمال الكفار [لا يقدرون مما كسبوا على شيء] ولا على مثقال ذرة منه ، لأنه مبنى على الكفر والتكذيب .

بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ •

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

[ذلك هو الضلال البعيد] حيث بطل سعيهم ، واضمحل عملهم .

وإما أن المراد بذلك ، أعمال الكفار التى عملوها ، ليكيدوا بها الحق .

فإنهم يسعون ويكدحون فى ذلك ، ومكرهم عائد عليهم ، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم ، من الحق شيئا .

* ينبه تعالى عباده بأن [الله خلق السموات والأرض بالحق] أى : ليعبده الخلق ويعرفوه ، ويأمرهم وينهاهم ، وليستدلوا بهما ، وما فيهما ، على ماله ، من صفات الكمال .

وليعلموا أن الذى خلق السموات والأرض — على عظمهما وسعتهما — قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً ، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم ، وأن قدرته ومشيئته ، لا تقصر عن ذلك ، ولهذا قال : [إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد] .

يحتمل أن المعنى : إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم ، يكونون أطوع لله منكم .

ويحتمل أن المراد : إن يشأ يفنيكم ، ثم يعيدكم بالبعث خلقاً جديداً .

ويدل على هذا الاحتمال ، ما ذكره بعده ، من أحوال يوم القيامة .

بِعزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا
مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

[وما ذلك على الله بعزيز] أى : بممتنع بل هو سهل عليه جداً .
« ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

[وبرزوا] أى : الخلائق[لله جميعاً] حين ينفخ فى الصور ، فيخرجون من الأجداث إلى ربهم ،فيقفون فى أرض مستوية ، قاع صفصف ، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتاً ويبرزون له ، لا يخفى عليه منهم خافية .

فإذا برزوا ، صاروا يتحاجون ، وكل يدفع عن نفسه ، ويدافع ما يقدر عليه ولكن أنى لهم ذلك ؟

[فقال الضعفاء] أى : التابعون والمقلدون [للذين استكبروا] وهم : المتبوعون ، الذين هم قادة فى الضلال :

[إنا كنا لكم تبعاً] أى : فى الدنيا ، أمرتمونا بالضلال ، وزينتموه لنا ، فأغويتمونا .

[فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء] أى: ولو مثقال ذرة .

[قالوا] أى : المتبوعون والرؤساء « أغوينا كم كما غوينا »
و [لو هدانا الله لهدينا كم] فلا يغنى أحد أحداً .

[سواء علينا أجزعنا] من العذاب [أم صبرنا] عليه .

[ما لنا من محيص] أى: لاملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾

---

* أى : [وقال الشيطان] الذى هو سبب لكل شر يقع ووقع فى العالم ، مخاطباً لأهل النار ، ومتبرئاً منهم [لما قضى الأمر] ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار :

[إن الله وعدكم وعد الحق] على ألسنة رسله ، فلم تطيعوه ، فلو أطعتموه ، لأدركتم الفوز العظيم .

[ووعدتكم] الخير [فأخلفتكم] أى : لم يحصل ، ولن يحصل لكم ما منيتكم به ، من الأمانى الباطلة .

[وما كان لى عليكم من سلطان] أى : من حجة على تأييد قولى .

[إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى] أى : هذه نهاية ما عندى ، أنى دعوتكم إلى مرادي ، وزينته لكم ، فاستجبتم لى ، اتّباعا لأهوائكم وشهواتكم .

فإذا كانت الحال بهذه الصورة [فلا تلومونى ولوموا أنفسكم] فأنتم السبب ، وعليكم المدار فى موجب العقاب .

[ما أنا بمصرخكم] أى : بمغيثكم من الشدة التى أنتم بها [وما أنتم بمصرخى] كل له قسط من العذاب .

مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

[إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل] أى : تبرأت من جعلكم لى شريكا مع الله ، فلست شريكا لله ، ولا تجب طاعتى .

[إن الظالمين] لأنفسهم بطاعة الشيطان [لهم عذاب أليم] خالدين فيه أبداً .

وهذا من لطف الله بعباده ، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله ، التى يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه ، وأنه يقصد أن يدخله النيران .

وهنا بيّن لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده ، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ، ويكفر بشركهم « ولا ينبئك مثل خبير » .

واعلم أن الله ذكر فى هذه الآية ، أن الشيطان ليس له سلطان .

وقال فى آية أخرى « إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » .

فالسلطان الذى نفاه عنه ، هو سلطان الحجة والدليل .

فليس له حجة أصلا ، على ما يدعو إليه .

وإنما نهاية ذلك ، أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ، ما به يتجرأون على المعاصى .

وأما السلطان ، الذى أثبته ، فهو التسلط بالإغراء على المعاصى لأوليائه يَؤُزُّهُمْ إلى المعاصى أزًّا ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم ، بموالاته ، والالتحاق بحزبه .

ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ

ولما ذكر عقاب الظالمين ، ذكر ثواب الطائعين فقال :

[وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : الذين قاموا بالدين ، قولا ، وعملا ، واعتقاداً .

[جنات تجرى من تحتها الأنهار] فيها من اللذات والشهوات ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[خالدين فيها بإذن ربهم] أى : لا بحولهم وقوتهم ، بل بحول الله وقوته .

[تحيتهم فيها سلام] أى : يُحيِّ بعضهم بعضاً بالسلام ، والتحية ، والكلام الطيب .

* يقول تعالى : [ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة] وهى شهادة أن لا إله إلا الله ، وفروعها .

[كشجرة طيبة] وهى النخلة [أصلها ثابت] فى الأرض [وفرعها] منتشر [فى السماء] وهى كثيرة النفع دائماً .

[تؤتى أكلها] أى ثمرتها [كل حين بإذن ربها] .

فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت فى قلب المؤمن ، علماً ، واعتقاداً .

بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

وفرعها من الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والأخلاق المرضية ، والآداب الحسنة ، فى السماء دائماً ، يصعد إلى الله منه ، من الأعمال والأقوال ، التى تخرجها شجرة الإيمان ، ما ينتفع به المؤمن ، وينتفع غيره .

[ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون] ماأمرهم به ونهاهم عنه. فإن فى ضرب الأمثال ، تقريباً للمعانى المعقولة ، من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذى أراده الله ، غاية البيان ، ويتضح ، غاية الوضوح ، وهذا من رحمته ، وحسن تعليمه . فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه .

فهذه صفة كلة التوحيد وثباتها ، فى قلب المؤمن .

ثم ذكر ضدها وهى : كلة الكفر ، وفرعها فقال :

[ومثل كلة خبيثة كشجرة خبيثة] المأكل والمطعم ، وهى : شجرة الحنظل ونحوها .

[اجتثت] هذه الشجرة [من فوق الأرض مالها من قرار] أى: ثبوت فلا عروق تمسكها ، ولا ثمرة صالحة ، تنتجها ، بل إن وجد فيها ثمرة ، فهى ثمرة خبيثة .

كذلك كلة الكفر والمعاصى ، ليس لها ثبوت نافع فى القلب ، ولا تثمر إلا كل قول خبيث ، وعمل خبيث ، يؤذى صاحبه ، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح ، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى : أنه يثبت عباده المؤمنين أى : الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام ، الذى يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها .

فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا ، عند ورود الشبهات ، بالهداية إلى اليقين.

وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة ، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها .

وفى الآخرة عند الموت ، بالثبات على الدين الإسلامى ، والخاتمة الحسنة.

وفى القبر عند سؤال الملكين ، للجواب الصحيح ، إذا قيل للميت « من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » هداهم للجواب الصحيح ، بأن يقول المؤمن : « الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبيى » .

[ويضل الله الظالمين] عن الصواب فى الدنيا والآخرة ، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

وفى هذه الآية ، دلالة على فتنة القبر ، وعذابه ، ونعيمه ، كما تواترت بذلك النصوص عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الفتنة وصفتها ، ونعيم القبر وعذابه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً حال المكذبين لرسوله ، من كفار قريش ، وما آل إليه أمرهم :

[ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً] ونعمة الله هي : إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة ، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة .

فبدلوا هذه النعمة ، بردها ، والكفر بها والصدّ عنها ، بأنفسهم .

[و] صدهم غيرهم حتى [أحلوا قومهم دار البوار] وهي : النار، حيث تسببوا لإضلالهم ، فصاروا وبالاً على قومهم ، من حيث يظن نفعهم .

ومن ذلك أنهم ، زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله.

فجرى عليهم ما جرى ، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم ، في تلك الوقعة .

[جهنم يصلونها] أي: يحيط بهم حرها ، من جميع جوانبهم [وبئس القرار]

[وجعلوا لله أنداداً] أي : نظراء وشركاء [ليضلوا عن سبيله]

أي : ليضلوا العباد عن سبيل الله ، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد ، ودعوهم إلى عبادتها .

[قل] لهم متوعدا : [تمتعوا] بكفركم وضلالكم قليلا ، فليس ذلك بنافعكم .

[فإن مصيركم إلى النار] أي : مآلكم ومأواكم فيها ، وبئس المصير .

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

---

* أى : [قل لعبادى الذين آمنوا] آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم ، وأن ينتهزوا الفرصة ، قبل أن لا يمكنهم ذلك :

[يقيموا الصلاة] ظاهرا وباطناً [وينفقوا مما رزقناهم] أى : من النعم التى أنعمنا بها عليهم ، قليلا أو كثيرا [سراً وعلانية] .

وهذا يشمل النفقة الواجبة ، كالزكاة ، ونفقة من تجب عليه نفقته ، والمستحبة ، كالصدقات ونحوها .

[من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال] أى : لا ينفع فيه شىء ، ولا سبيل إلى استدراك ما فات ، لا بمعاوضة بيع وشراء ، ولا بهبة خليل وصديق .

فكل امرىء له شأن يغنيه .

فليقدم العبد لنفسه ، ولينظر ما قدمه لغد ، وليتفقد أعماله ، ويحاسب نفسه ، قبل الحساب الأكبر .

ﭐللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

---

* يخبر تعالى : أنه وحده [الذى خلق السموات والأرض] على اتساعهما وعظمهما .

[وأنزل من السماء ماء] وهو : المطر الذى ينزله الله من السحاب .

[فأخرج به] أى : بذلك الماء [من الثمرات] المختلفة الأنواع .

[رزقاً لكم] ورزقاً لأنعامكم [وسخر لكم الفلك] أى : السفن والمراكب .

[لتجرى فى البحر بأمره] فهو الذى يسّر لكم صنعتها ، وأقدركم عليها ، وحفظها على تيار الماء ، لتحملكم ، وتحمل تجاراتكم وأمتعتكم ، إلى بلد تقصدونه .

[وسخر لكم الأنهار] لتسقى حروثكم وأشجاركم ، وتشربوا منها .

[وسخر لكم الشمس والقمر دائبين] لا يفتران ، ولا ينيان ، يسعيان لصالحكم ، من حساب أزمنتكم ومصالح أبدانكم ، وحيواناتكم ، وزروعكم ، وثماركم .

[وسخر لكم الليل] لتسكنوا فيه [والنهار] مبصراً ، لتبتغوا من فضله .

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى

[وآتاكم من كل ما سألتموه] أى : أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم ، مما تسألونه إياه . بلسان الحال ، أو بلسان المقال ، من أنعام ، وآلات ، وصناعات وغير ذلك .

[وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها] فضلا عن قيامكم بشكرها [إن الإنسان لظلوم كفار] أى : هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرىء على المعاصى ، مقصر فى حقوق ربه ، كفّار لنعم الله ، لا يشكرها ولا يعترف بها ، إلا من هداه الله ، فشكر نعمه ، وعرف حق ربه ، وقام به .

ففى هذه الآيات ، من أصناف نعم الله على العباد ، شىء عظيم ، مجمل ، ومفصل ، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره ، ويحثهم على ذلك ، ويرغبهم فى سؤاله ودعائه ، آناء الليل والنهار ، كما أن نعمته ، تتكرر عليهم ، فى جميع الأوقات .

* أى: [و] اذكر إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام، فى هذه الحالة الجميلة .
[إذ قال رب اجعل هذا البلد] أى : الحرم [آمنا] .

فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدراً ، فحرمه الله فى الشرع ، ويسَّر من أسباب حرمته ، قدرا ، ما هو معلوم .

حتى إنه لم يُرِدْهُ ظالم بسوء ، إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم .

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ

ولما دعا له بالأمن ، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: [واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام] .

أى : اجعلنى وإياهم ، جانباً بعيداً عن عبادتها ، والإلمام بها .

ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه ، بكثرة من افتتن وابتلى بعبادتها ، فقال :

[ربى إنهن أضللن كثيراً من الناس] أى : ضلوا بسببها .

[فمن تبعنى] على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين

[فإنه منى] لتمام الموافقة ومن أحب قوما واتبعهم ، التحق بهم .

[ومن عصانى فإنك غفور رحيم] وهذا من شفقة الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله ، والله تبارك وتعالى ، أرحم منه بعباده ، لا يعذب إلا من تمرد عليه .

[ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم] وذلك أنه أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل وبابنها إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، وهو فى الرضاع ، من الشام ، حتى وضعهما فى مكة ، وهى — إذ ذاك — ليس فيها سكن ، ولا داع ، ولا مجيب .

فلما وضعهما ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فقال — متضرعا متوكلا على ربه :

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ

[ربنا إنى أسكنت من ذريتى] أى : لا كل ذريتى ، لأن إسحق فى الشام ، وباقى بنيه كذلك ، وإنما أسكن فى مكة ، إسماعيل وذريته .

وقوله : [بواد غير ذى ذرع] أى : لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء .

[ربنا ليقيموا الصلاة] أى : اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ، لأن إقامة الصلاة من أخص ، وأفضل العبادات الدينية ، فمن أقامها ، كان مقيما لدينه .

[فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم] أى : تحبهم ، وتحب الوضع الذى هم ساكنون فيه .

فأجاب الله دعاءه ، فأخرج من ذرية إسماعيل ، محمدا صلى الله عليه وسلم ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامى ، وإلى ملة أبيهم إبراهيم ، فاستجابوا له وصاروا مقيمى الصلاة .

وافترض الله حج هذا البيت ، الذى أسكن به ذرية إبراهيم ، وجعل فيه سرا عجيبا ، جاذباً للقلوب ، فهى تحجه ، ولا تقضى منه وطرا على الدوام.

بل كلما أكثر العبد التردد إليه ، ازداد شوقه ، وعظم ولعه وتوقه.

وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة .

[وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون] فأجاب الله دعاءه .

فصار يجبى إليه ، ثمرات كل شىء .

فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت ، والثمار فيها متوفرة ، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب .

مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

[ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن] أى : أنت أعلم بنا منا .

فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا ، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها ، والتى لا نعلمها ، ما هو مقتضى علمك ورحمتك .

[وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء] ومن ذلك ، هذا الدعاء الذى لم يقصد به الخليل إلا الخير ، وكثرة الشكر لله رب العالمين .

[الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق] فذلك من أكبر النعم .

وكونه على الكبر ، فى حال الإياس من الأولاد ، نعمة أخرى .

وكونهم أنبياء صالحين ، أجلّ وأفضل .

[إن ربى لسميع الدعاء] أى : لقريب الإجابة ، ممن دعاه ، وقد دعوته ، ولم يخيب رجائى .

ثم دعا لنفسه ولذريته فقال : [رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعائى . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب] .

فاستجاب الله له فى ذلك كله ، إلا أن دعاءه لأبيه، إنما كان عن موعدة

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

وعده إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه .

ثم قال تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا » إلى « وأفئدتهم هواء » .

* هذا وعيد شديد للظالمين ، وتسلية للمظلومين . يقول تعالى :

[ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون] حيث أمهلهم وأدرّ عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلبون فى البلاد ، آمنين مطمئنين .

فليس فى هذا ، ما يدل على حسن حالهم ، فإن الله يُملى للظالم ويمهله ، ليزداد إثماً ، حتى إذا أخذه ، لم يفلته « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

والظلم — ههنا — يشمل الظلم فيما بين العبد وربه ، وظلمه لعباد الله .

[إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار] أى : لا تَطْرُفُ من شدة ما ترى ، من الأهوال وما أزعجها من القلاقل .

[مهطعين] أى : مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوهم إلى الحضور بين يدى الله للحساب ، لا امتناع لهم ولا محيص ، ولا ملجأ .

[مقنعى رءوسهم] أى : رافعيها قد غُلّتْ أيديهم إلى الأذقان ، فارتفعت لذلك ، رءوسهم .

[لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء] أى : أفئدتهم فارغة من قلوبهم ، قد صعدت إلى الحناجر ، لكنها مملوءة من كل هم وغم ، وحزن وقلق .

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب] أى : صِفْ لهم تلك الحال ، وحَذِّرْهُمْ من الأعمال الموجبة للعذاب، الذى حين يأتى فى شدائده وقلاقله .

[فيقول الذين ظلموا] بالكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصى ، نادمين على ما فعلوا ، سائلين للرجعة فى غير وقتها .

[ربنا أخرنا إلى أجل قريب] أى : رُدَّنا إلى الدنيا ،فإناقد أبصرنا.

[نجب دعوتك] والله يدعو إلى دار السلام [ونتبع الرسل] وهذا كله ، لأمل التخلص من العذاب الأليم ، وإلاَّ فهم كَذَبَةٌ فى هذا الوعد « فلو ردوا ، لعادوا لما نهوا عنه » .

ولهذا يوبخون ويقال لهم : [أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال] عن الدنيا ، وانتقال إلى الآخرة ، فها ، قد تبين لكم حِنْثَكُمْ فى إقسامكم ، وكذبكم فيما تدعون .

[و] ليس عملكم قاصراً فى الدنيا من أجل الآيات البينات .

بل [سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم] من أنواع العقوبات ؟ وكيف أحلّ الله بهم العقوبات ، حين كذبوا بالآيات البينات ، وضربنا لكم الأمثال الواضحة التى لا تدع أدنى شك فى القلب إلا أزالته .

فلم تنفع فيكم تلك الآيات ، بل أعرضتم ، ودمتم على باطلكم ، حتى

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

صار ما صار : ووصلتم إلى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه اعتذار ، من اعتذر بباطل .

[وقد مكروا] أي : المكذبون للرسل [مكرهم] الذى وصلت إليه إرادتهم ، وقدروا عليه .

[وعندالله مكرهم] أى : هو محيط به علما وقدرة ، وقد عاد مكرهم عليهم « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » [وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال] أى : ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل ، بالحق ، وبمن جاء به — من عظمه — لتزول الجبال الراسيات بسببه ، عن أماكنها .

أى : « مكروا مكراً كُبَّاراً » لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم فى نحورهم .

ويدخل فى هذا ، كل مَنْ مكر من المخالفين للرسل ، لينصر باطلا ، أو يبطل حقا .

والقصد أن مكرهم ، لم يغن عنهم شيئاً ، ولم يضروا الله شيئاً ، وإنما ضروا أنفسهم .

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

* يقول تعالى : [فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله] بنجاتهم ، ونجاة أتباعهم وسعادتهم ، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم فى الدنيا ، وعقابهم فى الآخرة .

فهذا لابد من وقوعه ، لأنه وعد به الصادق قولا ، على ألسنة أصدق خلقه ، وهم : الرسل ، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار .

خصوصا ، وهو مطابق للحكمة الإلهية ، والسنن الربانية ، وللعقول الصحيحة .

و [إن الله] لايعجزه شىء ، فإنه [عزيز ذو انتقام] .

أى : إذا أراد أن ينتقم من أحد ، فإنه لايفوته ولا يعجزه ، وذلك فى يوم القيامة .

[«يوم تبدل الأرض غير الأض والسموات »] تبدل غير السموات .

وهذا التبديل ، تبديل صفات ، لا تبـديل ذات ، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم ، فتصير قاعا صفصفا ، لاترى فيها عوجا ولا أمتا .

وتـكون السماء ، كالمهل ، من شدة أهوال ذلك اليوم ، ثم يطويها الله تعالى بيمينه .

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

[وبرزوا] أى : الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ، ونشورهم فى محل لا يخفى منهم على الله شىء .

[لله الواحد القهار] أى : المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته ، وأفعاله العظيمة ، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدبيره ، فلا يتحرك منها متحرك ، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه .

[وترى المجرمين] أى : الذين وصفهم الإجرام ، وكثرة الذنوب .

[يومئذ] فى ذلك اليوم [مقرنين فى الأصفاد] أى : يسلسل كل أهل عمل من المجرمين ، بسلاسل من نار ، فيقادون إلى العذاب ، فى أذل صورة وأشنعها ، وأبشعها .

[سرابيلهم] أى : ثيابهم [من قطران] وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ، ونتن ريحها .

[وتغشى وجوههم] التى هى أشرف ما فى أبدانهم [النار] أى : تحيط بها ، وتصلاها من كل جانب ، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى.

وليس هذا ظلما من الله ، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا ، ولهذا قال تعالى :

[ليجزى الله كل نفس ما كسبت] من خير وشر ، بالعدل والقسط ، الذى لا جور فيه بوجه من الوجوه .

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

[إن الله سريع الحساب] كقوله تعالى :

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » .

ويحتمل أن معناه : سريع المحاسبة ، فيحاسب الخلق فى ساعة واحدة كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير ، فى لحظة واحدة ، لايشغله شأن عن شأن ، وليس ذلك بعسير عليه .

فلما بين البيان المبين فى هذا القرآن ، قال فى مدحه :

[هذا بلاغ للناس] أى : يتبلغون به ، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات ، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع ، وجميع العلوم التى يحتاجها العباد .

[ولينذروا به] لما فيه من الترهيب من أعمال الشر ، وما أعد الله لأهلها من العقاب .

[وليعلموا أنما هو إله واحد] حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين ، على ألوهيته ووحدانيته ، ما صار ذلك حق اليقين .

[وليذكر أولو الألباب] أى : العقول الكاملة ، ما ينفعهم ، فيفعلونه وما يضرهم ، فيتركونه ، وبذلك صاروا أولى الألباب والبصائر .

. . . .

إذ بالقرآن ، ازدادت معارفهم وآراؤهم ، وتنورت أفكارهم ، لما أخذوه غضاً طرياً ، فإنه لايدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها .

ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها .

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكى ، لم يزل فى صعود ورقى على الدوام فى كل خصلة حميدة . والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام .

تفسير

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا

يقول تعالى — معظماً لكتابه ، ما دحاً له :

[تلك آيات الكتاب] أى : الآيات الدالة على أحسن المعانى ، وأفضل المطالب .

[وقرآن مبين] للحقائق ، بأحسن لفظ وأوضحه ، وأدله على المقصود .

وهذا مما يوجب على الخلق ، الانقياد إليه ، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول ، والفرح والسرور .

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها ، والكفر بها ، فإنه من المكذبين الضالين ، الذين سيأتى عليهم وقت ، يتمنون أنهم مسلمون ، أى : منقادون لأحكامه ، وذلك حين ينكشف الغطاء ، وتظهر أوائل الآخرة ، ومقدمات الموت

فإنهم فى أحوال الآخرة كلها ، يتمنون أنهم مسلمون ، وقد فات وقت الإمكان .

يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ

ولكنهم فى هذه الدنيا مغترون .

[ذرهم يأكلوا ويتمتعوا] بلذاتهم [ويلهم الأمل] أى : يؤملون البقاء فى الدنيا ، فيلهيهم عن الآخرة .

[فسوف يعلمون] أن ما هم عليه باطل ، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً عليهم ، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى ، فإن هذه ، سنته فى الأمم .

[وما أهلكنا من قرية] كانت مستحقة للعذاب [إلا ولها كتاب معلوم] مقدر لإهلاكها .

[ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون] وإلا ، فالذنوب لابد من وقوع أثرها ، وإن تأخر .

* أى : وقال المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، استهزاء وسخرية: [يا أيها الذى نزل عليه الذكر] على زعمك [إنك لمجنون] إذ تظن أنا سنتبعك ، ونترك ما وجدنا عليه آباءنا ، لمجرد قولك :

لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾

[لو ما تأتينا بالملائكة] يشهدون لك بصحة ما جئت به [إن كنت من الصادقين] فلما لم تأت بالملائكة ، فلست بصادق .

وهذا من أعظم الظلم والجهل .

أما الظلم ، فظاهر ، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات ، التى لم يخترها ، وحصل المقصود والبرهان بدونها ، من الآيات الكثيرة ، الدالة على صحة ما جاء به .

وأما الجهل ، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم .

فليس فى إنزال الملائكة ، خير لهم ، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذى لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له .

[وما كانوا إذاً] أى : حين تنزل الملائكة ، إن لم يؤمنوا ، ولن يؤمنوا [منظرين] أى : بممهلين .

فصار طلبهم لإنزال الملائكة ، تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار .

فإن الإيمان ليس فى أيديهم ، وإنما هو بيد الله .

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » ويكفيهم من الآيات ، إن كانوا صادقين ، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ

[إنا نحن نزلنا الذكر] أى : القرآن الذى فيه ذكرى لكل شىء ، من المسائل والدلائل الواضحة ، وفيه يتذكر من أراد التذكر .

[وإنا له لحافظون] أى : فى حال إنزاله ، وبعد إنزاله .

ففى حال إنزاله حافظون له ، من استراق كل شيطان رجيم .

وبعد إنزاله أودعه الله فى قلب رسوله ، واستودعه فى قلوب أمته ، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها ، والزيادة والنقص ، ومعانيه ، من التبديل .

فلا يحرف محرف معنى من معانيه ، إلا وقيض الله له من يبين الحق المبين .

وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين .

ومن حفظه : أن الله يحفظ أهله من أعدائهم ، ولا يسلط عدوا يجتاحهم .

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون : لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية : [ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين] .

* أى ، فرقهم وجماعتهم ، رسلا .

[وما يأتيهم من رسول] يدعوهم إلى الحق والهدى [إلا كانوا به يستهزئون] .

نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

[كذلك نسلكه] أى : ندخل التكذيب [فى قلوب المجرمين] أى : الذين وصفهم الظلم والبهت ، عاقبناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر والتكذيب ، وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ،ورسلهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان ، ولهذا قال :

[لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين] أى : عادة الله فيهم ، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله .

* أى : ولو جاءتهم كل آية عظيمة ، لم يؤمنوا وكابروا .

[ولو فتحنا عليهم باباً من السماء] فصاروا يعرجون فيه ، ويشاهدونه ، عياناً بأنفسهم ، لقالوا — من ظلمهم وعنادهم ، منكرين لهذه الآية : —

[إنما سكرت أبصارنا] أى: أصابها سكر وغشاوة ، حتى رأينا ما لم نر

[بل نحن قوم مسحورون] أى : ليس هذا بحقيقة ، بل هذا سحر .

وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار ، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء .

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال :

[ولقد جعلنا فى السماء بروجاً] إلى [برازقين] .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ

---

* يقول تعالى — مبينا كمال اقتداره ورحمته بخلقه :

[ولقد جعلنا فى السماء بروجا] أى : نجوما كالأبراج ، والأعلام العظام يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

[وزيناها للناظرين] ، فإنه لولا النجوم ، لما كان للسماء هذا المنظر البهى ، والهيئة العجيبة .

وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها ، والنظر فى معانيها ، والاستدلال بها ، على باريها .

[وحفظناها من كل شيطان رجيم] إذا استرق السمع ، أتبعته الشهب الثواقب ، فبقيت السماء ، ظاهرها ، مجملا بالنجوم النيرات ، وباطنها ، محروسا ممنوعا ، من الآفات .

[إلا من استرق السمع] أى : فى بعض الأوقات ، قد يسترق بعض الشياطين السمع ، بخفية واختلاس .

[فأتبعه شهاب مبين] أى : بين منير ، يقتله ، أو يخبله .

فربما أدركه الشهاب ، قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه ، فينقطع خبر السماء عن الأرض .

وربما ألقاها إلى وليه ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيضمها ويكذب معها مائة كذبة .

وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

ويستدل بتلك الكلمة التى ، سمعت من السماء .

[والأرض مددناها] أى وسعناها سعة، يتمكن الآدميون والحيوانات كلها ، من الامتداد بأرجائها ، والتناول من أرزاقها ، والسكون فى نواحيها .

[وألقينا فيها رواسى] أى : جبالا عظاما ، تحفظ الأرض بإذن الله ، أن تميد ، وتثبتها أن تزول .

[وأنبتنا فيها من كل شىء موزون] أى : نافع متقوم ، يضطر إليه العباد والبلاد ، ما بين نخيل ، وأعناب ، وأصناف الأشجار ، وأنواع النبات ، والمعادن .

[وجعلنا لكم فيها معايش] من الحرث ، ومن الماشية ، ومن أنواع المكاسب والحرف .

[ومن لستم له برازقين] أى : أنعمنا عليكم بعبيد وإماء ، وأنعام ، لنفعكم ، ومصالحكم ، وليس عليكم رزقها ، بل خولكم الله إياها ، وتكفل بأرزاقها .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

* أى : جميع الأرزاق وأصناف الأقدار ، لا يملكها أحد إلا الله .

نخزائنها بيده ، يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، بحسب حكمته ورحمته الواسعة .

[وما ننزله] أى : المقدر من كل شىء ، من مطر وغيره .

[إلا بقدر معلوم] فلا يزيد على ما قدره الله ، ولا ينقص منه .

* أى : وسخرنا الرياح ، رياح الرحمة ، تلقح السحاب ، كما يلقح الذكر الأنثى .

فينشأ عن ذلك ، الماء ، بإذن الله ، فيسقيه الله العباد ، ومواشيهم ، وأرضهم ، ويبقى فى الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ، ما هو مقتضى قدرته ورحمته .

[وما أنتم له بخازنين] أى : لا قدرة لكم على خزنه وادخاره .

ولكن الله يخزنه لكم ، ويسلكه ينابيع فى الأرض ، رحمة بكم ، وإحسانا إليكم .

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

---

* أى : هو وحده ، لاشريك له ، الذى يحيي الخلق من العدم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكوراً ويميتهم لآجالهم ، التى قدرها

[ونحن الوارثون] كقوله : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

وليس ذلك بعزيز ، ولا ممتنع على الله ، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، وما تفرق من أجزائهم .

وهو الذى ، قدرته لايعجزها معجز ، فيعيد عباده خلقا جديداً ، ويحشرهم إليه .

[إنه حكيم عليم] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، ويجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام ، وما جرى من عدوه إبليس ، وفى ضمن ذلك ، التحذير لنا من شره وفتنته ، فقال تعالى :

[ولقد خلقنا الإنسان] أى آدم عليه السلام [من صلصال من حمإ مسنون] أى : من طين قد يبس ، بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت ، كصوت الفخار .

وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

والحمأ المسنون ، الطين المتغير لونه وريحه ، من طول مكثه .

[والجان] وهو : أبو الجن أى : إبليس [خلقناه من قبل] خلق آدم [من نار السموم] أى : من النار الشديدة الحرارة .

فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة : [إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته] جسداً تاماً [ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين] فامتثلوا أمر ربهم [فسجد الملائكة كلهم أجمعون] .

تأكيد بعد تأكيد ، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد ، وذلك ، تعظيما لأمر الله ، وإكراماً لآدم ، حيث علم ما لم يعلموا .

[إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين] وهذا أول عداوته لآدم وذريته .

قال الله : [يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون] .

فاستكبر على أمر الله ، وأبدى العداوة لآدم وذريته ، وأعجب بعنصره وقال : أنا خير من آدم .

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

[قال] الله — معاقباً له على كفره واستكباره — [فاخرج منها فإنك رجيم] .

أى : مطرود ومبعد من كل خير .

[وإن عليك اللعنة] أى : الذم ، والعيب ، والبعد عن رحمة الله [إلى يوم الدين] .

ففيها ، وما أشبهها ، دليل على أنه سيستمر على كفره ، وبعده من الخير .

[قال رب فأنظرنى] أى : أمهلنى [إلى يوم يبعثون . **قال** : فإنك من المنظرين إلى الوقت المعلوم] .

وليس إجابة الله لدعائه ، كرامة فى حقه ، وإنما ذلك ، امتحان وابتلاء من الله له وللعباد ، ليتبين الصادق الذى يطيع مولاه دون عدوه ، ممن ليس كذلك .

ولذلك حذرنا منه ، غاية التحذير ، وشرح لنا ، مايريده منا .

[قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض] أى : أزين لهم الدنيا ، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى ، حتى يكونوا منقادين لكل معصية .

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

[ولأغوينهم أجمعين] أى : أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم .

[إلا عبادك منهم المخلصين] أى : الذين أخلصتهم واجتبيتهم ، لإخلاصهم ، وإيمانهم ، وتوكلهم .

قال الله تعالى : [هذا صراط على مستقيم] أى : معتدل موصل إلىّ ، وإلى دار كرامتى .

[إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] تميلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات ، بسبب عبوديتهم لربهم ، وانقيادهم لأوامره ، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان .

[إلا من اتبعك] فرضى بولايتك وطاعتك ، بدلا من طاعة الرحمن .

[من الغاوين] والغاوى : ضد الراشد ، فهو : الذى عرف الحق وتركه . والضال : الذى تركه من غير علم منه به .

[وإن جهنم لموعدهم أجمعين] أى : إبليس وجنوده .

[لها سبعة أبواب] كل باب أسفل من الآخر .

[لـكل باب منهم] أى: من أتباع إبليس [جزء مقسوم] بحسب أعمالهم.

قال تعالى :« فـكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون ».

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه ، أتباع إبليس ، من النـكال والعذاب

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

الشديد ، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم ، والنعيم المقيم فقال : إن المتقين » إلى « هو العذاب الأليم » .

* يقول تعالى : [إن المتقين] الذين اتقوا طاعة الشيطان ، وما يدعوهم إليه ، من جميع الذنوب والعصيان [فى جنات وعيون] قد احتوت على جميع الأشجار ، وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة ، فى جميع الأوقات .

ويقال لهم حال دخولها : [ادخلوها بسلام آمنين] من الموت ، والنوم والنصب ، واللغوب ، وانقطاع شىء من النعيم ، الذى هم فيه أو نقصانه ، ومن المرض ، والحزن ، والهم ، وسائر المكدرات .

[ونزعنا ما فى صدورهم من غل] فتبقى قلوبهم سالمة ، من كل غل ، وحسد ، متصافية متحابة « إخوانا على سرر متقابلين » .

دل ذلك على تزاورهم ، واجتماعهم ، وحسن أدبهم فيما بينهم ، فى كون كل منهم مقابلا للآخر ، لا مستدبراً له ، متكئين على تلك السرر المزينة ، بالفرش واللؤلؤ ، وأنواع الجواهر [لايمسهم فيها نصب[1]] لا ظاهر ولا باطن .

وذلك ، لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة ، لاتقبل شيئا من الآفات .

[وما هم منها بمخرجين] على سائر الأوقات .

---

(١) نصب . أى : تعب وكدر .

نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

ولما ذكر مايوجب الرغبة والرهبة ، من مفعولات الله ، من الجنة ، والنار ، ذكر مايوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال :

[نبىء عبادى] أى : أخبرهم خبراً جازماً ، مؤيداً بالأدلة .

[أنى أنا الغفور الرحيم] فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته ، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته ، وأقلعوا عن الذنوب ، وتابوا منها ، لينالوا مغفرته .

ومع هـذا ، فلا ينبغى أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال (١) .

فنبئهم [أن عذابى هو العذاب الأليم] أى : لاعذاب فى الحقيقة ، إلا عـذاب الله ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، نعوذ به من عذابه .

فإنهم إذا عرفوا أنه «لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد» حذروا ، وبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب .

فالعبد ، ينبغى أن يكون قلبه دائما ، بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته ، وجوده وإحسانه ، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة .

وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره فى حقوق ربه ، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها .

---

(١) كذا فى الأصل والعبارة غير واضحة . أ . هـ مصححه .

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ونبئهم عن ضيف إبراهيم] .

أى : عن تلك القصة العجيبة ، فإن فى قصك عليهم أنبـاء الرسل ، وما جرى لهم ، مايوجب لهم العبرة ، والاقتداء بهم .

خصوصاً ، إبراهيم الخليل ، الذى أمرنا الله أن نتبع ملته .

وضيفه هم : الملائـكة الـكرام ، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه .

[إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً] أى : سلموا عليه ، فرد عليهم [قال : إنا منـكم وجلون] أى : خائفون .

لأنه لما دخلوا عليه ، وحسبهم ضيوفاً ، ذهب مسرعاً إلى بيته ، فأحضر لهم ضيافتهم ، عجلا حنيذاً [1] فقدمه إليهم .

فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ، خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوهم .

[قالوا] له : [لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم] وهو : إسحق عليه الصلاة والسلام .

تضمنت هذه البشارة ، بأنه ذكر لا أنثى ، عليم ، أى : كثير العلم .

وفى الآية الأخرى « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ».

---

(١) حنيذا . أى : مشويا .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

قال لهم متعجبا من هذه البشارة : [أبشرتمونى] بالولد [على أن مسنى الكبر] وصار نوع إياس منه [فبم تبشرون] أى : على أى وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب ؟

[قالوا بشرناك بالحق] الذى لاشك فيه ، لأن الله على كل شىء قدير ، وأنتم بالخصوص — يا أهل هذا البيت — رحمة الله وبركاته عليكم ، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم .

[فلا تكن من القانطين] الذين يستبعدون وجود الخير ، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

فأجابهم إبراهيم بقوله : [ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون] الذين لا علم لهم بربهم ، وكمال اقتداره .

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم ، فلا سبيل إلى القنوط إليه ، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق ، لرحمة الله ، شيئا كثيراً .

ثم لما بشروه بهذه البشارة ، عرف أنهم مرسلون لأمر مُهِمّ .

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ

---

* أى : [قال] الخليل عليه السلام للملائكة [فما خطبكم أيها المرسلون] .

أى : ما شأنكم ، ولأى شيء أرسلتم ؟

[قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين] أى : كثر فسادهم ، وعظم شرهم ، لنعذبهم ونعاقبهم .

[إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين] أى : إلا لوطا ، وأهله [إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين] أى : الباقين بالعذاب .

وأما لوط ، فلنخرجنه وأهله ، وننجيهم منها :

فجعل إبراهيم ، يجادل الرسل فى إهلاكهم ، ويراجعهم .

فقيل له : « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » فذهبوا عنه .

[فلما جاء آل لوط المرسلون قال] لهم لوط [إنكم قوم منكرون] أى : لا أعرفكم ولا أدرى من أنتم .

[قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون] أى : جئناك بعذابهم الذى كانوا يشكون فيه ، ويكذبونك حين توعدهم به .

[وأتيناك بالحق] الذى ليس بالهزل [وإنا لصادقون] فيما قلنا لك .

وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى

[فأسر بأهلك بقطع من الليل] أى : فى أثنائه حين تنام العيون ، ولا يدرى أحد عن مسراك .

[واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد] أى : بادروا وأسرعوا .

[وامضوا حيث تؤمرون] كأن معهم دليلا يدلهم إلى أين يتوجهون .

[وقضينا إليه ذلك] أى : أخبرناه خبرا لا مثنوية فيه .

[أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين] أى : سيصبحهم العذاب الذى يجتاحهم ويستأصلهم .

[وجاء أهل المدينة] أى : المدينة التى فيها قوم لوط [يستبشرون] أي . يبشر بعضهم بعضاً ، بأضياف لوط ،وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم ، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم .

فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط ، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه ، ولوط يستعيذ منهم ويقول :

[إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون] أى: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله ، فلاتفضحون في أضيافى ، وتنتهكوا منهم حرمتهم بفعل الأمر الشنيع .

فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن

و [قالوا]له جواباً عن قوله ولا تخزون فقط: [أولم ننهك عن العالمين] أن تضيفهم ، فنحن قد أنذرناك ، ومن أنذر فقد أعذر .

[قال] لهم لوط من شدة الأمر الذى أصابه : [هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين] .

فلم يبالوا بقوله ، ولهذا قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم [لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون] وهذه السكرة ، هى سكرة محبة الفاحشة ، التى لا يبالون معها بعذل ولا لوم .

فلما بينت له الرسل حالهم ، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب .

فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا ، فنجوا .

وأما أهل القرية [فأخذتهم الصيحة مشرقين] أى : وقت شروق الشمس، حيث كانت العقوبة عليهم أشد .

[فجعلنا عاليها سافلها] أى : قلبنا عليهم مدينتهم .

[وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل] . تتبع فيها من شذ من البلد .

سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

[إن فى ذلك لآية للمتوسمين] أى : المتأملين المتفكرين ، الذين لهم فكر وروية وفراسة ، يفهمون بها ما أريد بذلك ، من أن من تجرأ على معاصى الله ، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة ، أن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات ، كما تجرأوا على أشنع السيئات .

[وإنها] أى : مدينة قوم لوط [لبسبيل مقيم] للسالكين ، يعرفه كل من تردد فى تلك الديار [إن فى ذلك لآية للمؤمنين] .

وفى هذه القصة من العبر : عنايته تعالى بخليله إبراهيم .

فإن لوطا عليه السلام ، من أتباعه ، ومن آمن به فكأنه تلميذ له .

فحين أراد الله إهلاك قوم لوط ، حين استحقوا ذلك ، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم عليه السلام ، كى يبشروه بالولد ، ويخبروه بما بعثوا له ، حتى إنه جادلهم عليه السلام فى إهلاكهم ، حتى أقنعوه ، فطابت نفسه .

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا أهل وطنه ، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم ، قدّر الله من الأسباب ، ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم ، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له : « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

ومنها : أن الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك قرية ، زاد شرهم وطغيانهم .

فإذا انتهى ، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ

---

* وهؤلاء قوم شعيب ، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة ، وهو : البستان كثير الأشجار ، ليذكر نعمته عليهم ، وأنهم ما قاموا بها ، بل جاءهم نبيهم شعيب ، فدعاهم إلى التوحيد ، وترك ظلم الناس فى المكاييل والموازين ، وعالجهم على ذلك على أشد المعالجة ، فاستمروا على ظلمهم فى حق الخالق ، وفى حق الخلق ، ولهذا ، وصفهم ، هنا ، بالظلم .

[فانتقمنا منهم] فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

[وإنهما] أى : ديار قوم لوط ، وأصحاب الأيكة [لبإمام مبين] أى : لبطريق واضح ، يمر بهم المسافرون كل وقت ، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار ، فيعتبر بذلك أولوا الألباب .

* يخبر تعالى عن أهل الحجر ، وهم ، قوم صالح ، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف فى أرض الحجاز ، أنهم كذبوا المرسلين ، أى : كذبوا صالحا .

ومن كذب رسولا ، فقد كذب سائر الرسل ، لاتفاق دعوتهم .

وليس تكذيب بعضهم لشخصه ، بل لما جاء به من الحق الذى اشترك جميع الرسل بالإتيان به .

[وآتيناهم آياتنا] الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق ، ومن جملتها : تلك الناقة ، هى من آيات الله العظيمة .

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

[فكانوا عنها معرضين] كبراً وتجبراً على الله .

[وكانوا] — من كثرة إنعام الله عليهم — [ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين] من المخاوف مطمئنين فى ديارهم .

فلو شكروا النعمة ، وصدقوا نبيهم صالحا ، عليه السلام ، لَأَدَرَّ الله عليهم الأرزاق ، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل .

ولكنهم — لما كذبوا ، وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : « ياصالح ائتنا بما تعدنا ، إن كنت من الصادقين » [فأخذتهم الصيحة مصبحين] .

فتقطعت قلوبهم فى أجوافهم ، وأصبحوا في دارهم جاثمين هَلْكَى ، مع ما يتبع ذلك ، من الخزى واللعنة المستمرة .

[فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] لأن أمر الله إذا جاء ، لا يرده كثرة جنود ، ولا قوة أنصار ، ولا غزارة أموال .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

---

* أى : ما خلقناها عبثاً باطلا ، كما يظن أعداء الله .

بل ما خلقناهما [إلا بالحق] الذى منه ، أن تكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما ، واقتداره ، وسعة رحمته ، وحكمته ، وعلمه المحيط ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

[وإن الساعة لآتية] لا ريب فيها ، لأن خلق السموات والأرض ابتداء ، أكبر من خلق الناس مرة أخرى .

[فاصفح الصفح الجميل] وهو الصفح ، الذى لا أذية فيه ، بل قَابِلْ إساءة المسىء بالإحسان ، وذنبه بالغفران ، لتنال من ربك ، جزيل الأجر والثواب ، فإن كل ما هو آت فهو قريب .

وقد ظهر لى معنى أحسن مما ذكرت هنا .

وهو : أن المأمور به ، هو الصفح الجميل ، أى : الحسن الذى قد سلم من الحقد ، والأذية القولية والفعلية .

دون الصفح الذى ليس بجميل ، وهو : الصفح فى غير محله .

فلا يصفح ، حيث اقتضى المقام العقوبة ، كعقوبة المعتدين الظالمين ، الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة ، وهذا هو المعنى .

[إن ربك هو الخلاق] لكل مخلوق [العليم] بكل شىء ، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه ، وجرى عليه خلقه ، وذلك : سائر الموجودات .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ

---

* يقول تعالى مُمْتَنًّا على رسوله : [ولقد آتيناك سبعاً من المثانى] وهن — على الصحيح — السور السبع الطوال : « البقرة » « وآل عمران » ، و« النساء » و« المائدة » و« الأنعام » و « الأعراف » و« الأنفال » مع « التوبة » . أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات .

فيكون عطف [والقرآن العظيم] على ذلك ، من باب عطف العام على الخاص ، لكثرة ما فى المثانى من التوحيد ، وعلوم الغيب ، والأحكام الجليلة ، وتثنيتها فيها .

وعلى القول ، بأن « الفاتحة » هى السبع المثانى ، معناها : أنها سبع آيات ، تثنى فى كل ركعة .

وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثانى ، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون ، وأعظم ما فرح به المؤمنون .

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ولذلك قال بعده : [لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم] أى : لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك ، بشهوات الدنيا ، التى تمتع بها المترفون ، واغتر بها الجاهلون ، واسْتَغْنِ بما آتاك الله ، من المثانى والقرآن العظيم .

[ولا تحزن عليهم] فإنهم لا خير فيهم يُرْجَى ، ولا نفع يُرْتقَبْ .

أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

فلك فى المؤمنين عنهم ، أحسن البدل ، وأفضل العوض .

[واخفض جناحك للمؤمنين] أى أَلِنْ لهم جانبك ، وحَسِّن لهم خلقك ، محبة ، وإكراماً ، وتَوَدُّداً .

[وقل إنى أنا النذير المبين] أى : قم بما عليك من النذارة ، وأداء الرسالة ، والتبليغ للقريب والبعيد ، والعدو ، والصديق .

فإنك إذا فعلت ذلك ، فليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء .

وقوله . [كما أنزلنا على المقتسمين] أى . كما أنزلنا العقوبة على بطلان ما جئت به ، الساعين لصد الناس عن سبيل الله .

[الذين جعلوا القرآن عضين] أى : أصنافا ، وأعضاءا ، وأجزاءا ، يصرفونه بحسب ما يهوونه .

فمنهم من يقول : سحر ، ومنهم من يقول : كهانة ومنهم من يقول مُفْتَرًى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به ، الذين جعلوا قدحهم فيه ، ليصدوا الناس عن الهدى .

[فوربك لنسألنهم أجمعين] أى : جميع من قدح فيه وعابه ، وحرّفه وبدّله [عما كانوا يعملون] .

وفى هذا أعظم ترهيب ، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون .

۞ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ

---

* ثم أمر الله رسوله أن لا يبالى بهم ، ولا بغيرهم ، وأن يصدع بما أمر الله ، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يُعَوِّقَنَّهُ عن أمره عائق ولا تَصُدَّه أقوال المتهوكين .

[وأعرض عن المشركين] أى لا تبال بهم، واترك مشاتمتهم ومسابتهم، مقبلا على شأنك .

[إنا كفيناك المستهزئين] بك وبما جئت به ، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزئون ، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة .

وقد فعل تعالى ، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، إلا أهلكه الله ، وقتله شر قتلة .

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يارسول الله .

فإنهم أيضاً ، يؤذون الله [الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر] وهو ربهم وخالقهم ، ومنه برهم [فسوف يعلمون] غِبَّ أفعالهم إذا وردوا القيامة .

[ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون] لك من التكذيب والاستهزاء .

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب ، والتعجيل لهم بما يستحقونه ، ولكن الله يمهلهم ولا يهملهم .

[ف] أنت يامحمد [سبح بحمد ربك وكن من الساجدين] أى : أكثر من ذكر الله ، وتسبيحه ، وتحميده ، والصلاة ، فإن ذلك يوسع الصدر ، ويشرحه ، ويعينك على أمورك .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[واعبد ربك حتى يأتيك اليقين] أى : الموت ، أى : استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات .

فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، فلم يزل دائباً فى العبادة ، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم ، تسليما كثيراً .

تم تفسير سورة الحجر — والحمد لله رب العالمين آمين

تفسير

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

---

* يقول تعالى — مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه —] أتى أمر الله فلا تستعجلوه [.

فإنه آت ، وما هو آت ، فإنه قريب .

[سبحانه وتعالى عما يشركون] من نسبة الشريك ، والولد ، والصاحبة ، والكفء ، وغير ذلك ، مما نسبه إليه المشركون ، مما لا يليق بجلاله ، أو ينافى كماله .

ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه ، ذكر الوحى الذى ينزله على أنبيائه ، مما يجب اتباعه ، فى ذكر ما ينسب لله ، من صفات الكمال فقال :

[ينزل الملائكة بالروح من أمره] أى : بالوحى الذى به حياة الأرواح [على من يشاء من عباده] ممن يعلمه صالحا . لتحمل رسالته .

مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها ، على قوله : [أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا] .

أي : على معرفة الله تعالى وتوحده ، في صفات العظمة ، التي هي صفات الألوهية ، وعبادته وحده لا شريك له ، فهي التي أنزل بها كتبه، وأرسل بها رسله ، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها ، وتحث وتجاهد من حاربها ، وقام بضدها .

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال :

[خلق السموات] إلى [لهداكم أجمعين] .

* هذه السورة ، تسمى سورة النعم ، فإن الله ذكر في أولها ، أصول النعم وقواعدها ، وفي آخرها ، متمماتها ومكملاتها .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق ، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما ، وما له من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما سكنا لعباده الذين يعبدونه ، بما يأمرهم به ، في الشرائع التي أنزلها على ألسنة رسله ، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال :

[تعالى عما يشركون] أي : تنزه وتعاظم عن شركهم ، فإنه الإله حقا ، الذي لا تنبغي العبادة ، والحب ، والذل ، إلا له تعالى .

وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ

ولما ذكر خلق السموات والأرض ، ذكر خلق ما فيهما .

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال : [خلق الإنسان من نطفة] لم يزل يدبرها ، ويربيها ، وينميها ، حتى صارت بشراً تاماً ، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة.

قد غمره بنعمه الغزيرة ، حتى إذا استتم ، فخر بنفسه وأعجب بها [فإذا هو خصيم مبين] .

يحتمل أن المراد : فإذا هو خصيم لربه ، يكفر به ، ويجادل رسله ، ويكذب بآياته .

ونسى خلقه الأول ، وما أنعم الله عليه به ، من النعم ، فاستعان بها على معاصيه .

ويحتمل أن المعنى : أن الله أنشأ الآدمى من نطفة .

ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور ، حتى صار عاقلا متكلما ، ذا ذهن ورأى ، يخاصم ويجادل .

فليشكر العبد ربه الذى أوصله إلى هذه الحال ، التى ليس فى إمكانه القدرة على شىء منها .

[والأنعام خلقها لكم] أى لأجلكم ، ولأجل منافعكم ومصالحكم .
ومن جملة منافعها العظيمة [لكم فيها دفء] مما تتخذون من أصوافها وأوبارها ، وأشعارها ، وجلودها ، من الثياب ، والفرش ، والبيوت .

أَثْقَالَـكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَـكُونُواْ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّـكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

[و] لـكم فيها [منافع] غير ذلك [ومنها تأكلون] .

[ولـكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون] أى : فى وقت رواحها وسكونها ، ووقت حركتها وسرحها .

وذلك أن جمالها ، لايعود إليها منه شيء ، فإنكم ، أنتم الذين تتجملون بها ، بثيابكم ، وأولادكم ، وأموالـكم ، وتعجبون بذلك .

[وتحمل أثقالـكم] من الأحمال الثقيلة ، بل وتحملـكم أنتم [إلى بلد لم تـكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس] ولـكن الله ، ذللها لـكم .

فمنها ما تركبونه ، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون ، من الأثقال، إلى البلدان البعيدة ، والأقطار الشاسعة .

[إن ربكم لرءوف رحيم] إنه سخرلـكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه .

فله الحمد ، كما ينبغى لجـلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، وسعة جوده وبره .

[والخيل والبغال والحمير] سخرناها لـكم [لتركبوها وزينة] .

أى : تارة تستعملونها للضرورة فى الركوب ، وتارة لأجل الجمال والزينة .

ولم يذكر الأكل ، لأن البغال والحمير ، محرم أكلها .

والخيل لاتستعمل — فى الغالب — للأكل ، بل ينهى عن ذبحها

وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ

لأجل الأكل ، خوفاً من انقطاعها ، وإلا فقد ثبت فى الصحيحين ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أذن فى لحوم الخيل .

[ويخلق ما لا تعلمون] مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء ، التى يركبها الخلق فى البر ، والبحر ، والجو ، ويستعملونها فى منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها ، لأن الله تعالى لم يذكر فى كتابه ، إلا مايعرفه العباد ، أو يعرفون نظيره .

وأما ما ليس له نظير فى زمانهم ، فإنه لو ذكر لم يعرفوه ، ولم يفهموا المراد به .

فيذكر أصلا جامعاً ، يدخل فيه ما يعلمون ، ومالا يعلمون .

كما ذكر نعيم الجنة ، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره ، كالنخل والأعناب والرمان .

وأجمل ما لا نعرف له نظيراً في قوله [فيهما من كل فاكهة زوجان] .

فكذلك هنا ، ذكر ما نعرفه ، من المراكب ، كالخيل ، والبغال ، والحمير ، والإبل ، والسفن .

وأجمل الباقى فى قوله [ويخلق مالا تعلمون] .

ولما ذكر تعالى ، الطريق الحسى ، وأن الله قد جعل للعباد ، ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ، ذكر الطريق المعنوى الموصل إليه فقال :

[وعلى الله قصد السبيل] أى : الصراط المستقيم ، الذى هو أقرب الطرق وأخصرها ، موصل إلى الله ، وإلى كرامته .

وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

وأما الطريق الجائر فى عقائده وأعماله ، وهو : كل ما خالف الصراط المستقيم ، فهو قاطع عن الله ، موصل إلى دار الشقاء .

فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم ، وضل الغاوون عنه ، وسلكوا الطرق الجائرة .

[ولو شاء لهداكم أجمعين] ولكنه هدى بعضاً ، كرماً وفضلا ، ولم يهد آخرين ، حكمة منه وعدلا .

* ينبه الله تعالى بهذه الآية الإنسان على عظمة قدرته وحثهم على التفكر حيث ختمها بقوله (لقوم يتفكرون) على كمال قدرة الله ، الذى أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ، ورحمته ، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه يشربون ، وتشرب مواشيهم ، ويسقون منه حروثهم ، فتخرج لهم الثمرات الكثيرة ، والنعم الغزيرة .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* أي : سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم ، وأنواع مصالحكم ، بحيث لاتستغنون عنها أبداً .

فبالليل تسكنون وتنامون ، وتستريحون .

وبالنهار تنتشرون فى معايشكم ، ومنافع دينكم ودنيا كم .

وبالشمس والقمر ، من الضياء ، والنور ، والإشراق ، وإصلاح الأشجار والثمار ، والنبات ، وتجفيف الرطوبات ، وإزالة البرودة الضارة للأرض ، وللأبدان ، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات ، التابعة لوجود الشمس والقمر .

وفيهما ، وفى النجوم ، من الزينة للسماء والهداية ، فى ظلمات البر والبحر ، ومعرفة الأوقات ، وحساب الأزمنة ، ما تتنوع دلالاتها ، وتتصرف آياتها .

ولهذا جمعها فى قوله [إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] أى : لمن لهم عقول يستعملونها فى التدبر والتفكر ، فيما هى مهيأة له ، مستعدة ، تعقل ما تراه ، وتسمعه .

لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة ، حظ البهائم ، التى لا عقل لها .

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟

---

* أي : فيما ذرأ الله ونشر للعباد ، من كل ما على وجه الأرض ، من حيوان ، وأشجار، ونبات ، وغير ذلك ، مما تختلف ألوانه ، وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله ، وعميم إحسانه ، وسعة بره ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لاشريك له .

[لقوم يذكرون] أي : يستحضرون فى ذاكرتهم ، ما ينفعهم من العلم النافع ، ويتأملون مادعاهم الله إلى التأمل فيه ، حتى يتذكروا بذلك ، ما هو دليل عليه .

* أي : هو وحده لا شريك له [الذى سخر البحر] وهيأه لمنافعكم المتنوعة .

[لتأكلوا منه لحما طرياً] وهو ، السمك ، والحوت ، الذى تصطادونه منه .

[وتستخرجوا منه حلية تلبسونها] فتزيدكم جمالا وحسناً إلى حسنكم .

[وترى الفلك] أي : السفن والمراكب [مواخر فيه] أى تمخر في البحر العجاج الهائل ، بتقدمها ، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر ، تحمل

مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

المسافرين وأرزاقهم ، وأمتعتهم ، وتجاراتهم ، التى يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم .

[ولعلكم تشكرون] الذى يسر لكم هذه الأشياء وهيأها ، وتثنون على الله الذى مَنَّ بها .

فلله تعالى الحمد والشكر ، والثناء ، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم ، فوق ما يطلبون ، وأعلى ما يتمنون ، وآتاهم من كل ما سألوه ، لانحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

* أى : [وألقى] الله تعالى لأجل عباده [فى الأرض رواسى] وهى : الجبال العظام لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق ، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء ، والسير عليها .

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً ، يسوقها من أرض بعيدة ، إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقى مواشيهم وحروثهم ، أنهاراً على وجه الأرض ، وأنهاراً فى بطنها يستخرجونها بحفرها ، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالى والآلات ونحوها .

ومن رحمته أن جعل فى الأرض سبلا أى : طرقاً توصل إلى الديار المتنائية .

[لعلكم تهتدون] السبيل إليها حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال ، مسلسلة فيها ، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين .

* أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

---

* لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة ، وما أنعم به من النعم العميمة ، ذكر أنه لايشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له ، فقال :

[أفمن يخلق] جميع المخلوقات ، وهو الفعال لما يريد [كمن لا يخلق] شيئاً ، لا قليلا ، ولا كثيراً .

[أفلا تذكرون] فتعرفون أن المنفرد بالخلق ، أحق بالعبادة كلها .

فكما أنه واحد فى خلقه وتدبيره ، فإنه واحد فى إلهيته وتوحيده ، وعبادته .

وكما أنه ليس له مشارك ، إذ أنشأكم وأنشأ غيركم ، فلا تجعلوا له أنداداً فى عبادته ، بل أخلصوا له الدين .

[وإن تعدوا نعمة الله] عدداً مجرداً عن الشكر [لا تحصوها] فضلا عن كونكم تشكرونها .

فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد ، بعدد الأنفاس واللحظات ، من جميع أصناف النعم ، مما يعرف العباد ، ومما لا يعرفون ، وما يدفع عنهم من النقم ، فأكثر من أن تحصى .

[إن الله لغفور رحيم] يرضى منكم باليسير من الشكر ، مع إنعامه الكثير .

دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ

وكما أن رحمته واسعة ، وجوده عميم ، ومغفرته شاملة للعباد ، فعلمه محيط بهم .

[يعلم ماتسرون وما تعلنون] بخلاف من عبد من دونه .

فإنهم [لايخلقون شيئا] قليلا ولا كثيراً [وهم يخلقون] .

فكيف يخلقون شيئا مع افتقارهم فى إيجادهم إلى الله تعالى ؟ ! !

ومع هـذا ، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء ، لاعلم ، ولا غيره .

[أموات غير أحياء] فلا تسمع ، ولاتبصر ، ولاتعقل شيئا ، أفنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين .

فتبًّا لعقول المشركين ، ما أضلها ، وأفسدها ، حيث ضلت فى أظهر الأشياء فساداً .

وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ، ولا شيء من الأفعال ، وبين الكامل من جميع الوجوه الذى له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها .

فله العلم المحيط بكل الأشياء ، والقدرة العامة ، والرحمة الواسعة ، التى ملأت جميع العوالم .

والحمد والمجد والكبرياء والعظمة ، التى لايقدر أحد من الخلق ، أن يحيط ببعض أوصافه ولهذا قال :

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

[إن إلهكم إله واحد] وهو : الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يكن له كفوراً أحد .

فأهل الإيمان والعقول ، أحلته قلوبهم وعظمته ، وأحبته حباً عظيما ، وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية ، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح ، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته ، وأفعاله المقدسة .

[فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة] لهذا الأمر العظيم الذى لا ينكره إلا أعظم الخلق ، جهلا وعناداً ، وهو : توحيد الله [وهم مستكبرون] عن عبادته .

[لاجرم] أى : حقاً لابد [أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون] من الأعمال القبيحة [إنه لا يحب المستكبرين] بل يبغضهم أشد البغض ، وسيجازيهم من جنس عملهم « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين » .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ

---

* يقول تعالى ـ مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله :

[وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم] أى : إذا سئلوا عن القرآن والوحى ، الذى هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد .

فماذا قولكم به ؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها ، أم تكفرون وتعاندون ؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه ، فيقولون عنه : إنه [أساطير الأولين] أى : كذب اختلقه محمد على الله ، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس ، جيلا بعد جيل ، منها الصدق ومنها الكذب .

فقالوا هذه المقالة ، ودعوا أتباعهم إليها ، وحملوا وزرهم ، ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة .

وقوله : [ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم] أى : من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم ، إلا ما دعوهم إليه ، فيحملون إثم ما دعوهم إليه .

وأما الذين يعلمون ، فكلٌّ مستقلٌّ بجرمه ، لأنه عرف ما عرفوا .

[ألا ساء مايزرون] أى : بئس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم : من وزرهم ، ووزر من أضلوه .

مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ

[قد مكر الذين من قبلهم] برسلهم ، واحتالوا بأنواع الحيل ، على رد ما جاءوهم به ، وبنوا من مكرهم ، قصوراً هائلة .

[فأتى الله بنيانهم من القواعد] أى : جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها .

[فخر[1] عليهم السقف من فوقهم] فصار ما بنوه عذاباً ، عذبوا به .

[وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون] وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سينفعهم ، ويقيهم العذاب ، فصار عذابهم فيما بنوه وأصَّلوه .

وهذا من أحسن الأمثال ، فى إبطال الله مكر أعدائه .

فإنهم فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم ، وجعلوا لهم أصولا وقواعد من الباطل ، يرجعون إليها ، ويردون بها ما جاءت به الرسل .

واحتالوا أيضاً ، على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم .

فصار مكرهم وَبَالاً عليهم ، فصار تدبيرهم فيه تدميرهم .

وذلك لأن مكرهم سيىء « ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله » .

هذا فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، ولهذا قال :

---

(١) نخر . أى : سقط ، ووقع .

ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ

[ثم يوم القيامة يخزيهم] أى يفضحهم على رءوس الخلائق ، ويبين لهم كذبهم ، وافتراءهم على الله .

[ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم] أى : تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم ، وتزعمون أنهم شركاء لله .

فإذا سألهم هذا السؤال ، لم يكن لهم جواب ، إلا الإقرار بضلالهم ، والاعتراف بعنادهم فيقولون « ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

[قال الذين أوتوا العلم] أى : العلماء الربانيون [إن الخزى اليوم] أى : يوم القيامة [والسوء] أى : سوء العذاب [على الكافرين] .

وفى هذا فضيلة أهل العلم ، وأنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وأن لقولهم ، اعتباراً عند الله وعند خلقه .

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة ، وفى القيامة فقال :

[الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم] أى : تتوفاهم فى هذه الحال ، التي كثر فيها ظلمهم وغيهم ، وقد علم ما يلقى الظلمة فى ذلك المقام ، من أنواع العذاب والخزى والإهانة .

ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

[فألقوا السلم] أى : استسلموا ، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله وقالوا :

[ما كنا نعمل من سوء] .

فيقال لهم : [بلى] كنتم تعملون السوء ، و [إن الله عليم بما كنتم تعملون] فلا يفيدكم الجحود شيئاً .

وهذا فى بعض مواقف القيامة ، ينكرون ما كانوا عليه فى الدنيا ، ظنا منهم أنه ينفعهم .

فإذا شهدت عليهم جوارحهم ، وتبين ما كانوا عليه أقروا ، واعترفوا .

ولهذا لا يدخلون النار ، حتى يعترفوا بذنوبهم .

فإذا دخلوا أبواب جهنم ، فكُلٌّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم .

[فلبئس مثوى المتكبرين] نار جهنم ، فإنها مثوى الحسرة والندم ، ومنزل الشقاء والألم ، ومحل الهموم والغموم ، وموضع السخط من الحى القيوم .

لا يُفتَّر عنهم من عذابها ، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها ، قد أعرض عنهم الرب الرحيم ، وأذاقهم العذاب العظيم .

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

* لما ذكر الله قيل(1) المكذبين بما أنزل الله ، ذكر ما قاله المتقون ، وأنهم اعترفوا وأقروا ، بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة ، وخير عظيم امتن الله به على العباد ، فقبلوا تلك النعمة ، وتلقوها بالقبول والانقياد ، وشكروا الله عليها ، فعلموها ، وعملوا بها .

[للذين أحسنوا] فى عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله ، فلهم [فى هذه الدنيا حسنة] رزق واسع ، وعيشة هنية ، وطمأنينة قلب ، وأمن ، وسرور .

[ولدار الآخرة خير] من هذه الدار ، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات ، فإن هذه ، نعيمها قليل ، محشو بالآفات ، منقطع .

بخلاف نعيم الآخرة ، ولهذا قال : [ولنعم دار المتقين ، جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون] أى : مهما تمنت أنفسهم ، وتعلقت به إرادتهم ، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها .

فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم ، الذى فيه لذة القلوب ، وسرور الأرواح ، إلا وهو حاضر لديهم ، ولهذا يعطى الله أهل الجنة ، كل ما تمنوه عليه حتى إنه يُذَكِّرُهمْ أشياء من النعيم ، لم تخطر على قلوبهم .

فتبارك الذي ، لانهاية لكرمه ، ولا حد لجوده ، الذى ليس كمثله شيء

---

(1) قيل ، أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارىء .

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

فى صفات ذاته ، وصفات أفعاله ، وآثار تلك النعوت ، وعظمة الملك والملكوت .

[كذلك يجزى الله المتقين] لسخط الله وعذابه ، بأداء ما أوجبه عليهم ، من الفروض ، والواجبات ، المتعلقة بالقلب ، والبدن ، واللسان ، من حقه ، وحق عباده ، وترك ما نهاهم الله عنه .

[الذين تتوفاهم الملائكة] مستمرين على تقواهم [طيبين] أى : طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس ، يتطرق إليهم ، ويخل فى إيمانهم .

فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته ، وألسنتهم بذكره ، والثناء عليه ، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه .

[يقولون سلام عليكم] التحية الكاملة ، خاصة لكم ، والسلامة من كل آفة .

وقد سلمتم من كل ما تكرهون [ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون] من الإيمان بالله ، والانقياد لأمره .

فإن العمل هو السبب والمادة ، والأصل فى دخول الجنة ، والنجاة من النار .

وذلك العمل ، حصل لهم برحمة الله ومنته ، لا بحولهم وقوتهم .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات ، فلم يؤمنوا ، وَذُكِّرُوا ، فلم يتذكروا .

[إلا أن تأتيهم الملائكة] لقبض أرواحهم [أو يأتى أمر ربك] بالعذاب الذى سيحل بهم ، فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم .

[كذلك فعل الذين من قبلهم] كذبوا وكفروا ، ثم لم يؤمنوا ، حتى نزل بهم العذاب .

[وما ظلمهم الله] إذ عذبهم [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فإنها مخلوقة لعبادة الله ، ليكون مآلها إلى كرامة الله ، فظلموها ، وتركوا ما خلقت له ، وعرضوها للإهانة الدائمة ، والشقاء الملازم .

[فأصابهم سيئات ما عملوا] أى : عقوبات أعمالهم وآثارها .

[وحاق بهم] أى : نزل [ما كانوا به يستهزئون] فإنهم كانوا إذا أنذرتهم رسلهم بالعذاب ، استهزأوا به ، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذى سخروا منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

* أى : احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء ، ما أشركوا ، ولا حرموا شيئا من الأنعام ، التى أحلها كالبحيرة ، والوصيلة والحام ، ونحوها ، من دونه .

وهذه حجة باطلة ، فإنها لو كانت حقاً ، ما عاقب الله الذين من قبلهم ، حيث أشركوا به ، فعاقبهم أشد العقاب . فلو كان يحب ذلك منهم ، لما عذبهم .

وليس قصدهم بذلك ، إلا رد الحق الذى جاءت به الرسل ، وإلا فعندهم علم ، أنه لا حجة لهم على الله .

فإن الله أمرهم ونهاهم ، ومكنهم من القيام بما كلفهم ، وجعل لهم قوة ومشيئة تصدر عنها أفعالهم . فاحتجاجهم بالقضاء والقدر ، من أبطل الباطل.

هذا ، وكل أحد يعلم بالحس ، قدرة الإنسان على كل فعل يريده ، من غير أن ينازعه منازع .

فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله ، وتكذيب الأمور العقلية، والحسية .

[فهل على الرسل إلا البلاغ المبين] أى : البين ، الظاهر ، الذى يصل إلى القلوب ، ولا يبقى لأحد على الله حجة .

فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه ، واحتجوا عليهم بالقدر ، فليس للرسل من الأمر شىء ، وإنما حسابهم على الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أن حجته قامت على جميع الأمم ، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة ، إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ، ودين واحد ، وهو : عبادة الله وحده لا شريك له [أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت] .

فانقسمت الأمم ، بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها ، قسمين .

[فمنهم من هدى الله] فاتبعوا المرسلين ، علما ، وعملا .

[ومنهم من حقت عليه الضلالة] فاتبع سبيل الغيِّ .

[فسيروا فى الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين] فإنكم سترون من ذلك ، العجائب ، فلا تجد مكذبا ، إلا كان عاقبته الهلاك .

[إن تحرص على هداهم] وتبذل جهدك فى ذلك [فإن الله لا يهدى من يضل] ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله .

[ومالهم من ناصرين] ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

---

* يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله ، أنهم [أقسموا بالله جهد أيمانهم] أى : حلفوا أيمانا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأنه لا يبعث الأموات ، ولا يقدر على إحيائهم ، بعد أن كانوا ترابا .

قال تعالى مكذبا لهم : [بلى] سيبعثهم ، ويجمعهم ، ليوم لا ريب فيه [وعدا عليه حقا] لا يخلفه ولا يغيره [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] ومن جهلهم العظيم ، إنكارهم البعث والجزاء .

ثم ذكر الحكمة فى الجزاء والبعث فقال :

[ليبين لهم الذى يختلفون فيه] من المسائل الكبار والصغار ، فيبين حقائقها ويوضحها .

[وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين] حتى يروا أعمالهم حسرات عليهم .

وما نفعتهم آلهتهم ، التى يدعون مع الله من شىء ، لما جاء أمر ربك وحين يرون ما يعبدون ، حطباً لجهنم ، وتكور الشمس والقمر ، وتتناثر النجوم ، ويتضح لمن يعبدها ، أنها عبيد مسخرات ، وأنهن مفتقرات

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾(٤١)

إلى الله فى جميع الحالات ، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد ، فإنه إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون ، من غير منازعة ولا امتناع ، بل يكون على طبق ما أراده وشاءه .

* يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين [الذين هاجروا فى الله] أى : فى سبيله ، وابتغاء مرضاته [من بعد ما ظلموا] بالأذية والمحنة من قومهم ، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك ، فتركوا الأوطان والخلان ، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن .

فذكرلهم ثوابين ، ثوابا عاجلا فى الدنيا ، من الرزق الواسع ، والعيش الهنيء ، الذى رأوه عيانا ، بعد ما هاجروا ، وانتصروا على أعدائهم ، وافتتحوا البلدان ، وغنموا منها الغنائم العظيمة ، فتمولوا ، وآتاهم الله فى الدنيا حسنة .

[ولأجر الآخرة] الذى وعدهم الله على لسان رسوله خير، و[أكبر] من أجر الدنيا كما قال تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » .

وقوله : [لو كانوا يعلمون] أى : لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجرفى سبيله ، لم يتخلف عن ذلك أحد .

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ

ثم ذكر وصف أوليائه فقال [الذين صبروا] على أوامر الله وعن نواهيه ، وعلى أقدار الله المؤلمة ، وعلى الأذية فيه ، والمحن [وعلى ربهم يتوكلون] أى : يعتمدون عليه فى تنفيذ محابّه ، لا على أنفسهم . وبذلك تنجح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فإن الصبر والتوكل ، ملاك الأمور كلها.

فما فات أحداً شيء من الخير ، إلا لعدم صبره ، وبذل جهده فيما أريد منه ، أو لعدم توكله واعتماده على الله .

* يقول تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم : [وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا] أى : لست ببدع من الرسل ، فلم نرسل قبلك ملائكة ، بل رجالا كاملين لا نساء .

[نوحى إليهم] من الشرائع والأحكام ، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد ، من غير أن يأتوا بشيء من قِبَل أنفسهم .

[فاسألوا أهل الذكر] أى : الكتب السابقة [إن كنتم لا تعلمون] نبأ الأولين ، وشككتم : هل بعث الله رجالا ؟

فاسألوا أهل العلم بذلك ، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات ، فعلموها وفهموها .

فإنهم كلهم ، قد تقرر عندهم ، أن الله ما بعث إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى .

وَأَنْزَلْنَآ إِلَيكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

وعموم هذه الآية ، فيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه ، العلم بكتاب الله المنزل .

فإن الله أمر من لا يعلم ، بالرجوع إليهم ، فى جميع الحوادث .

وفى ضمنه ، تعديل لأهل العلم ، وتزكية لهم ، حيث أمر بسؤالهم ، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة .

فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله ، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم ، والاتصاف بصفات الكمال .

وأفضل أهل الذكر ، أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر على الحقيقة ، وأولى من غيرهم بهذا الاسم ، ولهذا قال تعالى :

[وأنزلنا إليك الذكر] أى : القرآن الذى فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد ، من أمور دينهم ودنياهم ، الظاهرة والباطنة .

[لتبين للناس ما نزل إليهم] وهذا شامل لتبيين ألفاظه ، وتبيين معانيه .

[ولعلهم يتفكرون] فيه ، فيستخرجون من كنوزه وعلومه ، بحسب استعدادهم ، وإقبالهم عليه .

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

* هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصى ، من أن يأخذهم بالعذاب على غِرَّة ، وهم لا يشعرون .

إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم ، بالخسف أو غيره

وإما فى حال تَقَلُّبِهم وشغلهم ، وعدم خطور العذاب ببالهم .

وإما فى حال تَخَوُّفِهم من العذاب .

فليسوا بمعجزين الله ، فى حالة من هذه الأحوال ، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده .

ولكنه رءوف رحيم ، لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يمهلهم ويعافيهم ويرزقهم وهم يؤذونه ، ويؤذون أولياءه .

ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة ، ويدعوهم إلى الإقلاع عن السيئات ، التى تضرهم ، ويعدهم بذلك ، أفضل الكرامات ، ومغفرة ما صدر عنهم من الذنوب .

فَلْيَسْتَحِ المجرم من ربه ، أن تكون نعم الله عليه نازلة فى جميع الحالات ، ومعاصيه صاعدة إلى ربه فى كل الأوقات .

وَلْيَعلَمْ أن الله يمهل ولا يهمل ، وأنه إذا أخذ العاصى ، أخذه أخذ عزيز مقتدر .

فَلْيَتُبْ إليه ، وَلْيَرْجِعْ فى جميع أموره إليه ، فإنه رءوف رحيم .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة ، وبره العميم ، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم ، ألا ، وهى تقواه ، والعمل بما يحبه ويرضاه .

* يقول تعالى : [أولم يرو] أى : الشاكون فى توحيد ربهم وعظمته وكماله .

[إلى ما خلق الله من شىء] أى : إلى جميع مخلوقاته ، وكيف تتفيأ أظلتها .

[عن اليمين والشمائل سجداً لله] أى : كلها ساجدة لربها ، خاضعة لعظمته وجلاله .

[وهم داخرون] أى : ذليلون تحت التسخير والتدبير ، والقهر .

ما منهم أحد ، إلا وناصيته بيد الله ، وتدبيره عنده .

[ولله يسجد ما فى السموات ومافى الأوض من دابة] من الحيوانات الناطقة والصامتة .

[والملائكة] الكرام ، خصهم بعد العموم ، لفضلهم ، وشرفهم ، وكثرة عبادتهم ، ولهذا قال :

[وهم لا يستكبرون] أى : عن عبادته ، على كثرتهم ، وعظمة أخلاقهم

مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ

وقوتهم ، كما قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .

[يخافون ربهم من فوقهم] لما مدحهم بكثرة الطاعة ، والخضوع لله ، مدحهم بالخوف من الله الذى هو فوقهم بالذات والقهر ، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره .

[ويفعلون ما يؤمرون] أى : مهما أمرهم الله تعالى ، امتثلوا لأمره ، طوعا واختيارا .

وسجود المخلوقات لله تعالى قسمان : سجود اضطرار ، ودلالة على ما له من صفات الكمال .

وهذا عام لكل مخلوق ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، وحيوان ناطق وغيره .

وسجود اختيار ، يختص بأوليائه وعباده المؤمنين ، الملائكة ، وغيرهم من المخلوقات .

* يأمر تعالى ، بعبادته وحده لا شريك له ، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فقال :

[لا تتخذوا إلهين اثنين] أى : تجعلون له شريكا فى إلهيته .

وهو [إنما هو إله واحد] متوحد فى الأوصاف العظيمة ، متفرد بالأفعال كلها .

وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ

فكما أنه الواحد فى ذاته ، وأسمائه ، ونعوته ، وأفعاله ، فَلْتُوَحِّدوه فى عبادته .

ولهذا قال : [فإياى فارهبون] أى : خافونى ، وامتثلوا أمرى ، واجتنبوا نهيي ، من غير أن تشركوا بى شيئاً من المخلوقات ، فإنها كلها لله تعالى مملوكة .

[وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً][1] أى : الدين ، والعبادة ، والذل فى جميع الأوقات ، لله وحده ، على الخلق أن يخلصوه لله ، وينصبغوا بعبوديته .

[أفغير الله تتقون] من أهل الأرض أو أهل السموات ، فإنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً ، والله المنفرد ، بالعطاء والإحسان .

[وما بكم من نعمة] ظاهرة وباطنة [فمن الله] لا أحد يشركه فيها .

[ثم إذا مسكم الضر] من فقر ، ومرض ، وشدة [فإليه تجأرون] أى : تضجون بالدعاء والتضرع ، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو .

فالذى انفرد بإعطائكم ما تحبون ، وصرف ما تكرهون ، هو الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده .

---

(١) واصباً أى : دائماً .

عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ

ولكن كثيراً من الناس ، يظلمون أنفسهم ، ويحمدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة .

فإذا صاروا فى حال الرخاء ، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة ، ولهذا قال :

[ليكفروا بما آتيناهم] أى : أعطيناهم ، حيث نجيناهم من الشدة ، وخلصناهم من المشقة .

[فتمتعوا] فى دنياكم قليلا [فسوف تعلمون] عاقبة كفركم .

* يخبر تعالى ، عن جهل المشركين ، وظلمهم ،وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم ، التى لا تعلم ، ولا تنفع ، ولا تضر — نصيباً مما رزقهم الله ، وأنعم به عليهم .

فاستعانوا برزقه على الشرك به ، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة ، كما قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله » الآية ، وقال « تالله لتسألن عما كنتم تفترون » . وقال: « آلله أمركم بهذا أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة

وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

[ويجعلون لله البنات سبحانه] حيث قالوا عن الملائكة ، العباد المقربين : إنهم بنات الله .

[ولهم ما يشتهون] أى : لأنفسهم الذكور ، حتى إنهم يكرهون البنات ، كراهة شديدة .

فكان أحدهم [إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً] من الغم الذى أصابه [وهو كظيم] أى : كاظم على الحزن والأسف ، إذا بشِّرَ بأنثى ، وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به .

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد ، فيما يصنع بتلك البنت التى بشر بها [أيمسكه على هون] أى : يتركها من غير قتل على إهانة وذل ؟

[أم يدسه فى التراب] أى : يدفنها وهى حية ، وهو الوأد الذى ذم الله به المشركين .

[ألا ساء ما يحكمون] إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله ، من نسبة الولد إليه .

ثم لم يكفهم هذا ، حتى نسبوا له أردأ القسمين ، وهو : الإناث ، اللاتى يأنفون بأنفسهم عنها ، ويكرهونها ، فكيف ينسبونها لله تعالى ؟ ! فبئس الحكم حكمهم .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

ولما كان هذا من أمثال السوء ، التى نسبها إليه أعداؤه المشركون ، قال تعالى :

[للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء] أى : المثل الناقص والعيب التام .

[ولله المثل الأعلى] وهو كل صفة كمال ، وكل كمال فى الوجود ، فالله أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقصا بوجه من الوجوه .

وله المثل الأعلى فى قلوب أوليائه ، وهو : التعظيم والإجلال ، والمحبة والإنابة والمعرفة .

[وهو العزيز] الذى قهر جميع الأشياء ، وانقادت له المخلوقات بأسرها.

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، فلا يأمر ، ولا يفعل ، إلا ما يحمد عليه ، ويُثنَى على كماله فيه .

* لما ذكر تعالى ، ما افتراه الظالمون عليه ، ذكر كمال حلمه وصبره فقال:

[ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم] من غير زيادة ولا نقص .

[ما ترك على ظهرها من دابة] أى: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات ، فإن شؤم المعاصى ، يهلك به الحرث والنسل.

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

[ولكن يؤخرهم] عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة [فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] فَلْيَحْذَرُوا ، ما داموا فى وقت الإمهال ، قبل أن يجئ الوقت الذى لا إمهال فيه .

* يخبر تعالى أن المشركين [يجعلون لله ما يكرهون] من البنات ، ومن الأوصاف القبيحة ، وهو : الشرك ، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات ، التى هى عبيد لله .

فكما أنهم يكرهون ، ولا يرضون أن يكون عبيدهم — وهم مخلوقون من جنسهم — شركاء لهم فيما رزقهم الله ، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده ؟!! .

[و]هم — مع هذه الإساءة العظيمة — [تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى] أى : أن لهم الحالة الحسنة فى الدنيا والآخرة .

فرد عليهم بقوله : [لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون] مقدمون إليها ، ماكثون فيها ، غير خارجين منها أبداً .

بَيَّن تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالى :

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

[تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك] رسلا يدعونهم إلى التوحيد .

[فزين لهم الشيطان أعمالهم] فكذبوا الرسل ، وزعموا أن ما هم عليه ، هو الحق المنجى من كل مكروه ، وأن ما دعت إليه الرسل ، فهو بخلاف ذلك .

فلما زين لهم الشيطان أعمالهم . صار [وليهم اليوم فى الدنيا] ، فأطاعوه ، واتبعوه ، وتولوه .

« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » .

[ولهم عذاب أليم] فى الآخرة ، حيث تولوا ، عن ولاية الرحمن ، ورضوا بولاية الشيطان ، فاستحقوا لذلك ، عذاب الهوان .

☆ يقول تعالى : وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن ، إلا لتبين للناس الحق ، فيما كان موضع اختلافهم ، من التوحيد ، والقدر ، وأحكام الأفعال وأحوال المعاد ، وليكون هداية تامة ، ورحمة عامة ، لقوم يؤمنون بالله ، وبالكتاب الذى أنزله .

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ

---

* يذكر الله تعالى فى هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره ، فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لأنه المنعم بإنزال المطر ، وإنبات جميع أصناف النبات ، وعلى أنه على كل شىء قدير ، وأن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الأموات ، وأن الذى نشر هذا الإحسان ، لذو رحمة واسعة ، وجود عظيم.

* أى : [إن لكم فى الأنعام] التى سخرها الله لمنافعكم [لعبرة] تستدلون بها على كمال قدرة الله ، وسعة إحسانه ، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم .

فأخرج من بين ذلك ، لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين ، للذته ، ولأنه يسقى ويغذى .

فهل هذه ، إلا قدرة إلهية ، لا أمور طبيعية .

فأى شىء فى الطبيعة ، يقلب العلف الذى تأكله البهيمة ، والشراب الذى تشربه من الماء العذب والملح ، لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب ، منافع للعباد ، ومصالح ، من أنواع الرزق الحسن ، الذى يأكله العباد ، طريًّا ونضيجاً ،

ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

وحاضراً ، ومدخراً ، وطعاما وشرابا يتخذ من عصيرها ونبيذها ، ومن السكر الذى كان حلالا قبل ذلك .

ثم إن الله نسخ حِلّ المسكرات ، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة . وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ولهذا قال من قال « إن المراد بالسكر هنا : الطعام والشراب اللذيذ » وهو أولى من القول الأول .

[إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب ، فصارت ثمرة لذيذة وفاكهة طيبة ، وعلى شمول رحمته ، حيث عم بها عباده ، ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده ، حيث إنه المنفرد بذلك .

* فى خلق هذه النحلة الصغيرة ، التى هداها الله هذه الهداية العجيبة ، ويسر لها المراعى .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

ثم الرجوع إلى بيوتها ، التى أصلحتها ، بتعليم الله لها وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان ، بحسب اختلاف أرضها ومراعيها ، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة .

فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى ، وتمام لطفه بعباده ، وأنه الذى لا ينبغى أن يحب غيره ويدعى سواه .

* يخبر تعالى ، أنه الذى خلق العباد ، ونقلهم فى الخلقية ،طوراً بعد طور ، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم ، يتوفاهم .

ومنهم من يعمره حتى [يرد إلى أرذل العمر] أى : أخسه الذى يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة ، حتى العقل ، الذى هو جوهر الإنسان ، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه ،ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال :

[لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير] أى : قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ، ومن ذلك ، ما ينقل به الآدمى من أطوار الخلقة ، خلقا بعد خلق ، كما قال تعالى :

« الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

---

* هذا من أدلة توحيده ، وقبح الشرك به .

يقول تعالى : كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون ، إلا أنه تعالى [فضل بعضكم على بعض فى الرزق] فجعل منكم أحراراً، لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم ، لا يملكون شيئا من الدنيا .

فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا [برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء] ويرون هذا من الأمور المتنعة .

فكذلك من أشركتم بها مع الله ، فإنها عبيد ، ليس لها من الملك ، مثقال ذرة .

فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ ! .

هل هذا ، إلا من أعظم الظلم ، والجحود لنعم الله ؟!! ولهذا قال : [أفبنعمة الله يجحدون] فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولاها ، لما أشركوا به أحدا .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن مِنَّتِهِ العظيمة على عباده ، حيث جعل لهم أزواجا ، ليسكنوا إليها ، وجعل لهم من أزواجهم ، أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم ، ويقضون حوائجهم ، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة ، ورزقهم من الطيبات ، من المآكل ، والمشارب ، والنعم الظاهرة ، التى لا يقدر العباد أن يحصوها .

[أفباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون] أى : أيؤمنون بالباطل ، الذي لم يكن شيئا مذكورا ، ثم أوجده الله ، وليس له من وجوده سوى العدم ، فلا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدبر من الأمور شيئا .

وهذا عام لكل ما عبد من دون الله ، فإنها باطلة .

فكيف يتخذها المشركون من دون الله ؟!! .

[وبنعمة الله هم يكفرون] يجحدونها ، ويستعينون بها على معاصى الله والكفر به .

هل هذا إلا من أظلم الظلم ، وأفجر الفجور ، وأسفه السفه .؟!!

۞ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

---

* يخبر تعالى، عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة، اتخذوها شركاء لله.

والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السموات والأرض.

فلا ينزلون مطرا، ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا، ولا يملكون مثقال ذرة فى السموات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا.

فإن غير المالك للشيء، ربما كان له قوة واقتدار على ماينفع من يتصل به.

وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسموات، الذى له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها ؟!!.

ولهذا قال: [فلا تضربوا لله الأمثال] المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه.

[إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه.

أحدهما عبد مملوك، أى: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً.

والثانى حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسنا، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سرا وجهراً، هل يستوى هذا

عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ

وذاك ؟! لا يستويان ، مع أنهما مخلوقان ، وغير محال استواؤهما .

فإذا كانا لا يستويان ، فكيف يستوى المخلوق والعبد ، الذى ليس له ملك ولا قدرة ، ولا استطاعة بل هو فقير من جميع الوجوه ، بالرب المالك لجميع الممالك ، القادر على كل شىء ؟!!.

ولهذا حمد نفسه ، واختص بالحمد بأنواعه ، فقال : [الحمد لله] .

فكأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فلِمَ سوّى المشركون آلهتهم بالله ؟ قال :

[بل أكثرهم لا يعلمون] فلو علموا حقيقة العلم ، لم يتجرأوا على الشرك العظيم .

والمثل الثانى مثل [رجلين أحدهما أبكم] لا يسمع ولا ينطق [لا يقدر على شىء] لا قليل ولا كثير [وهو كَلٌّ على مولاه] أى يخدمه مولاه ، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه ، فهو ناقص من كل وجه .

هل يستوى هو ، ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم] فأقواله عدل ، وأفعاله مستقيمة .

فكما أنهما لا يستويان ، فلا يستوى من عُبِدَ من دون الله ، وهو لا يقدر على شىء من مصالحه .

لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

فلولا قيام الله بها ، لم يستطع شيئاً منها .

ولا يكون كفواً ، ولا نداً ، لمن لا يقول إلا الحق ، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه .

* أى : هو تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض .

فلا يعلم الخفايا والبواطن ، والأسرار ، إلا هو .

ومن ذلك ، علم الساعة ، فلا يدرى أحد متى تأتى ، إلا الله .

فإذا جاءت وتجلت ، لم تكن « إلا كلمح البصر أو هو أقرب » من ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال .

[إن الله على كل شىء قدير] فلا يستغرب على قدرته الشاملة ، إحياؤه للموتى .

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

---

* أى : هو المنفرد بهذه النعم حيث [أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا] ولا تقدرون على شىء ثم إنه [جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة] .

خص هذه الأعضاء الثلاثة ، لشرفها ، وفضلها ، ولأنها مفتاح لكل علم .

فلا يصل للعبد علم ، إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة ، وإلاَّ فسائر الأعضاء ، والقوى الظاهرة والباطنة ، هو الذى أعطاهم إياها ، وجعل ينميها فيهم ، شيئا فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به .

وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح ، فى طاعة الله .

فمن استعملها فى غير ذلك ، كانت حجة عليه ، وقابل النعمة بأقبح المعاملة .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

أى : لأنهم المنتفعون بآيات الله ، المتفكرون فيما جعلت آية عليه .

وأما غيرهم ، فإن نظرهم نظر لهوٍ ، وغفلة .

ووجه الآية فيها ، أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران .

ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف .

ثم أودع فيها من قوة الحركة ، وما قدرت به على ذلك .

وذلك دليل على حكمته ، وعلمه الواسع ، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره ، تبارك الله رب العالمين.

يُذَكِّر تعالى عباده بنعمه ، ويستدعى منهم شكرها ، والاعتراف بها فقال :

* [والله جعل لكم من بيوتكم سكنا] فى الدور والقصور ونحوها ، تُكِنُّكُمْ من الحر والبرد ، وتستركم ، أنتم وأولادكم ، وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت ، التى هى لأنواع منافعكم ومصالحكم ، وفيها حفظ لأموالكم وحرمكم ، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة .

[وجعل لكم من جلود الأنعام] إما من الجلد نفسه ،أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ

[بيوتا تستخفونها] أى : تجدونها خفيفة الحمل ، تكون لكم [يوم ظعنكم ويوم إقامتكم] أى: فى السفر والمنازل ، التى لا قصدلكم فى استيطانها فتقيكم من الحر ، والبرد ، والمطر ، وتقى متاعكم من المطر .

[و] جعل لكم [من أصوافها] أى : الأنعام [وأوبارها وأشعارها أثاثاً] وهذا شامل لكل ما يتخذ منها ، من الآنية ، والأوعية ،والفرش ، والألبسة ، والأجلة ، وغير ذلك .

[ومتاعا إلى حين] أى : تتمتعون بذلك فى هذه الدنيا ،وتنتفعون بها .

فهذا مما سخر الله العباد لصنعته وعمله .

[والله جعل لكم مما خلق] أى : من مخلوقاته التى لا صنعة لكم فيها.

[ظلالا] وذلك ، كأظلة الأشجار ، والجبال ، والآكام ونحوها .

[وجعل لكم من الجبال أكنانا] أى : مغارات ، تكنكم من الحر والبرد ، والأمطار ، والأعداء .

[وجعل لكم سرابيل] أى : ألبسة وثيابا [تقيكم الحر] .

ولم يذكر الله البرد ، لأنه قد تقدم أن هذه السورة ، أولها فى أصول النعم ، وآخرها فى مكملاتها ومتماتها .

ووقاية البرد ، من أصول النعم ، فإنه من الضرورة ، وقد ذكره فى أولها فى قوله « لكم فيها دفء ومنافع » .

يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

[وسرابيل تقيكم بأسكم] أى : وثيابا تقيكم وقت البأس والحرب ، من السلاح ، وذلك ، كالدروع ، والزرود ، ونحوها .

[كذلك يتم نعمته عليكم] حيث أسبغ عليكم من نعمه ، مالا يدخل تحت الحصر .

[لعلكم] إذا ذكرتم نعمة الله ، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه [تسلمون] لعظمته ، وتنقادون لأمره ، وتصرفونها فى طاعة موليها ومسديها.

فكثرة النعم ، من الأسباب الجالبة من العباد ، مزيد الشكر ، والثناء بها على الله تعالى .

ولكن أبى الظالمون ، إلا تمردا وعنادا ، ولهذا قال الله عنهم :

[فإن تولوا] عن الله ، وعن طاعته ، بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته .

[فإنما عليك البلاغ المبين] ليس عليك من هدايتهم ، وتوفيقهم شىء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير ، والإنذار والتحذير .

فإذا أديت ما عليك ، فحسابهم على الله ، فإنهم يرون الإحسان ، ويعرفون نعمة الله ، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها .

[وأكثرهم الكافرون] لا خير فيهم ، وما ينفعهم توالى الآيات ، لفساد مشاعرهم ، وسوء قصودهم ، سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد ، كفور للنعم ، متمرد على الله ، وعلى رسله .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ

---

* يخبر تعالى ، عن حال هؤلاء الذين كفروا فى يوم القيامة ، وأنه لا يقبل لهم عذر ، ولا يرفع عنهم العقاب ، وأن شركاءهم تتبرأ منهم ، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله ، فقال :

[ويوم نبعث من كل أمة شهيداً] يشهد عليهم بأعمالهم ، وماذا أجابوا به الداعى إلى الهدى ، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله ، أزكى الشهداء وأعدلهم ، وهم : الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم .

[ثم لا يؤذن للذين كفروا] فى الاعتذار ، لأن اعتذارهم بعد ما علموا يقينا ، بطلان ما هم عليه ، اعتذار كاذب ، لا يفيدهم شيئاً .

وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا ، ليستدركوا ، لم يجابوا ، ولم يعتبوا .

بل يبادرهم العذاب الشديد ، الذى ، لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال ، من حين يرونه ، لأنهم لا حسنات لهم ، وإنما تعد أعمالهم وتحصى ، ويوقفون عليها ويقرون بها ، ويفتضحون

[وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم] يوم القيامة وعلموا بطلانها ، ولم يمكنهم الإنكار .

شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

[قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك] ليس عندها نفع ولا شفيع .

فنوّهوا بأنفسهم ببطلانها ، وكفروا بها ، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها .

[فألقوا إليهم القول] أى : ردت عليهم شركاؤهم قولهم ، فقالت لهم : [إنكم لكاذبون] حيث جعلتمونا شركاء لله ، وعبدتمونا معه ، فلم نأمركم بذلك ، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للألوهية ، فاللوم عليكم .

فحينئذ ، استسلموا لله ، وخضعوا لحكمه ، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب .

[وضل عنهم ما كانوا يفترون] فدخلوا النار ، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم ، ومن حمد ربهم ، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا .

* يذكر الله تعالى فى هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا بأنفسهم ، وكذبوا بآيات الله ، وحاربوا رسله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وصاروا دعاة إلى الضلال ، فاستحقوا مضاعفة العذاب ، كما تضاعف جرمهم ، وكما أفسدوا فى أرض الله .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

---

* لما ذكر فيما تقدم، أنه يبعث [في كل أمة شهيدا] ذكر ذلك أيضا هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال:

[وجئنا بك شهيدا على هؤلاء] أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر.

وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعا من غيره، على أعمال أمته، وأعدل، وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

وقال تعالى: « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ».

وقوله [ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء] في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه، أتم تبيين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية.

حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه

. . . .

كل وقت ، وإعادتها فى كل ساعة ، ويعيدها ، ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة ، لتستقر فى القلوب فتثمر من الخير والبر ، بحسب ثبوتها فى القلب .

وحتى إنه تعالى يجمع فى اللفظ القليل الواضح ، معانى كثيرة ، يكون اللفظ لها ، كالقاعدة والأساس .

واعتبر هذا ، بالآية التى بعد هذه الآية ، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهى ، التى لا تحصى .

فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شىء ، صار حجة الله على العباد كلهم .

فانقطعت به حجة الظالمين ، وانتفع به المسلمون ، فصار هدى لهم ، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ، ورحمة ينالون به كل خير فى الدنيا والآخرة .

فالهدى ، ما نالوا به ، من علم نافع ، وعمل صالح .

والرحمة ، ما ترتب على ذلك ، من ثواب الدنيا والآخرة ، كصلاح القلب وبره ، وطمأنينته .

وتمام العقل ، الذى لا يتم إلا بتربيته على معانيه ، التى هى أجل المعانى وأعلاها ، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة ، والرزق الواسع ، والنصر على الأعداء بالقول والفعل ، ونيل رضا الله تعالى ، وكرامته العظيمة ، التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم ، إلا الرب الرحيم .

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ

* فالعدل الذى أمر الله به ، يشمل العدل فى حقه ، وفى حق عباده .

فالعدل فى ذلك ، أداء الحقوق كاملة موفورة ، بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية ، والمركبة منهما ، فى حقه ، وحق عباده .

ويعامل الخلق بالعدل التام ، فيؤدى كل وال ، ما عليه ، تحت ولايته ، سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى ، وولاية القضاء ، ونواب الخليفة ، ونواب القاضى .

والعدل هو : ما فرضه الله عليهم فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه .

ومن العدل فى المعاملات ، أن تعاملهم فى عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات ، بإيفاء جميع ما عليك ، فلا تبخس لهم حقاً ، ولا تغشهم ، ولا تخدعهم وتظلمهم .

فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحبة ، وذلك كنفع الناس ، بالمال والبدن ، والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع ، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول ، وغيره .

وخص الله إيتاء ذوى القربى — وإن كان داخلا فى العموم — لتأكد حقهم ، وتعين صلتهم وبرهم ، والحرص على ذلك .

ويدخل فى ذلك ، جميع الآقارب ، قريبهم ، وبعيدهم ، لكن كل من كان أقرب ، كان أحق بالبر .

وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

وقوله [وينهى عن الفحشاء] وهو : كل ذنب عظيم ، استفحشته الشرائع والفطر ، كالشرك بالله ، والقتل بغير حق ، والزنا ، والسرقة ، والعجب ، والكبر ، واحتقار الخلق ، وغير ذلك من الفواحش .

ويدخل فى المنكر ، كل ذنب ومعصية ، تتعلق بحق الله تعالى .

وبالبغى ، كل عدوان على الخلق ، فى الدماء ، والأموال ، والأعراض .

فصارت هذه الآية ، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، لم يبق شىء ، إلا دخل فيها .

فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات .

فكل مسألة مشتملة على عدل ، أو إحسان ، أو إيتاء ذى القربى ، فهى مما أمر الله به .

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر ، أو بغى ، فهى مما نهى الله عنه .

وبها يعلم حسن ما أمر الله به ، وقبح ما نهى عنه .

وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال ، وترد إليها سائر الأحوال .

فتبارك من جعل من كلامه ، الهدى ، والشفاء ، والنور ، والفرقان بين جميع الأشياء .

ولهذا قال : [يعظكم] أى : بما بينه لكم فى كتابه ، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم ، عما فيه مضرتكم .

[لعلكم تذكرون] ما يعظكم به ، فتفهمونه وتعقلونه .

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ

فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه ، عملتم بمقتضاه ، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها .

فلما أمر بما هو واجب فى أصل الشرع ، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال « وأوفوا بعهد الله » إلى قوله « فيه تختلفون » .

* هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه ، من العبادات ، والنذور ، والأيمان التى عقدها ، إذا كان بها براً .

ويشتمل أيضا ، ما تعاقد عليه هو وغيره ، كالعهود بين المتعاقدين ، وكالوعد الذى يعده العبد لغيره ، ويؤكده على نفسه .

فعليه فى جميع ذلك ، الوفاء وتتميمها مع القدرة .

ولهذا نهى الله عن نقضها فقال : [ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها] بعقدها على اسم الله تعالى [وقد جعلتم الله عليكم] أيها المتعاقدون [كفيلا] .

فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلا ، فيكون فى ذلك ترك تعظيم الله ، واستهانة به ، وقد رضى الآخر منك باليمين ، والتوكيد الذى جعلت الله فيه كفيلا .

فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك ، فلتف له بما قلته وأكدته .

[إن الله يعلم ما تفعلون] فيجازى كل عامل بعمله ، على حسب نيته ومقصده .

[ولا تـكونوا] فى نقضكم للعهود بأسوإ الأمثال وأقبحها وأدلها على صفة متعاطيها .

وذلك [كالتى] تغزل غزلا قوياً ، فإذا استحكم ، وتم ما أريد منه [نقضت غزلها من بعد قوة] فجعلته [أنـكاثاً] فتعبت على الغزل ، ثم على النقض ، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء ، وسفاهة العقل ، ونقص الرأى .

فـكذلك من نقض ما عاهد عليه ، فهو ظالم جاهل سفيه ، ناقص الدين والمروءة .

وقوله : [تتخذون أيمانـكم دخلا بينـكم أن تـكون أمة هى أربى من أمة] .

أى : لاتنبغى هذه الحالة منـكم ، تعقدون الأيمان المؤكدة ، وتنتظرون فيها الفرص .

فإذا كان العاقد لها ضعيفا ، غير قادر على الآخر ، أتمها ، لا تعظيم العقد واليمين ، بل لعجزه .

وإن كان قويا ، يرى مصلحته الدنيوية فى نقضها ، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه .

كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس ، وتقديما لها على مراد الله منكم ، وعلى المروءة الإنسانية ، والأخلاق المرضية لأجل أن تـكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى .

أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وهذا [إنما يبلوكم الله به] امتحانا حيث قيض لعباده من أسباب المحن ما يمتحن به الصادق الوفى ، من الفاجر الشقى .

[وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون] فيجازى كلا بعمله ، ويخزى الغادر .

* أى : [لو شاء الله] لجمع الناس على الهدى ، و [لجعلهم أمة واحدة] .

ولكنه تعالى ، المنفرد بالهداية والإضلال — وهدايته وإضلاله ، من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته .

يعطى الهداية ، من يستحقها ، فضلا ، ويمنعها من لا يستحقها ، عدلا

[ولتسألن عما كنتم تعملون] من خير وشر ، فيجازيكم عليها ، أتم الجزاء ، وأعد له .

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ

---

* أى : [ولا تتخذوا أيمانكم] وعهودكم ومواثيقكم [دخلا بينكم] أى : تبعاً لأهوائكم ، متى شئتم وفيتم بها ، ومتى شئتم نقضتموها .

فإنكم إذا فعلتم ذلك ، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم.

[وتذوقوا السوء] أى : العذاب الذى يسوءكم ويحزنكم [بما صددتم عن سبيل الله] حيث ضللتم ، وأضللتم غيركم [ولكم عذاب عظيم] مضاعف .

* يحذر تعالى عباده ، من نقض العهود ، والأيمان لأجل متاع الدنيا وحطامها فقال :

[ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا] تنالونه بالنقض وعدم الوفاء .

[إنما عند الله] من الثواب العاجل والآجل ، لمن آثر رضاه ، وأوفى بما عاهد عليه الله [هو خير لكم] من حطام الدنيا الزائلة [إن كنتم تعلمون] .

فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن [ما عندكم] ولو كثر جداً ، لابد أن [ينفد] ويفنى .

[وما عند الله باق] ببقائه ، لا يفنى ولا يزول .

بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

فليس بعاقل ، من آثر الفانى الخسيس ، على الباقى النفيس ، وهذا كقوله تعالى :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * وما عند الله خير للأبرار » .

وفى هذا ، الحث والترغيب على الزهد فى الدنيا .

خصوصاً ، الزهد المتعين ، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد ، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه ، وتقديمه على حق الله ، فإن هذا الزهد واجب .

ومن الدواعى للزهد ، أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة .

فإنه يجد من الفرق والتفاوت ، ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمرين .

وليس الزهد الممدوح ، هو الانقطاع للعبادات القاصرة ، كالصلاة ، والصيام ، والذكر ونحوها .

بل لا يكون العبد زاهداً ، زهداً صحيحاً ، حتى يقوم بما يقدر عليه ، من الأوامر الشرعية ، الظاهرة والباطنة ، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل .

فالزهد الحقيقى ، هو : الزهد فيما لا ينفع فى الدين والدنيا ، والرغبة والسعى ، فى كل ما ينفع .

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[ولنجزين الذين صبروا] على طاعة الله ، وعن معصيته ، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية ، المضرة بدينهم [أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون] الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولهذا ذكر جزاء العاملين فى الدنيا والآخرة ، فقال :

[من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن] فإن الإيمان شرط فى صحة الأعمال الصالحة وقبولها ، بل لا تسمى أعمالا صالحة ، إلا بالإيمان ، والإيمان مقتض لها ، فإنه : التصديق الجازم ، المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات .

فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح [فلنحيينه حياة طيبة] وذلك بطمأنينة قلبه ، وسكون نفسه ، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ، ويرزقه الله رزقاً حلالا طيباً ، من حيث لا يحتسب .

[ولنجزينهم] فى الآخرة .

[أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون] من أصناف اللذات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فيؤتيه الله فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة .

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* أى : فإذا أردت القراءة لكتاب الله ، الذى هو أشرف الكتب وأجلها ، وفيه صلاح القلوب ، والعلوم الكثيرة ، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد ، عند شروعه فى الأمور الفاضلة ، فيسعى فى صرفه عن مقاصدها ومعانيها .

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله ، والاستعاذة من شره .

فيقول القارىء « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » متدبراً لمعناها ، معتمدا بقلبه على الله ، فى صرفه عنه ، مجتهداً فى دفع وسواسه وأفكاره الرديئة ، مجتهداً على السبب الأقوى فى دفعه ، وهو : التَّحلِّى بحلية الإيمان والتوكل .

فإن الشيطان [ليس له سلطان] أى : تسلط [على الذين آمنوا وعلى ربهم] وحده لا شريك له [يتوكلون] ، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه ، شر الشيطان ، ولا يبقى له عليهم ، سبيل .

[إنما سلطانه] أى تسلطه [على الذين يتولونه] أى : يجعلونه لهم وليا .

وذلك بتخليهم عن ولاية الله ، ودخولهم فى طاعة الشيطان ، وانضمامهم لحزبه .

فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم ، فأزَّهم إلى المعاصى أزًّا ، وقادهم إلى النار قَوْداً .

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى، أن المكذبين بهذا القرآن، يتتبعون مايرونه حجة لهم.

وهو: أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم، الذى يشرع الأحكام، ويبدل حكما مكان آخر، لحكمته ورحمته.

فإذا رأوه كذلك، قدحوا فى الرسول، وبما جاء به، و [قالوا إنما أنت مفتر].

قال الله تعالى: [بل أكثرهم لا يعلمون] منهم جهال، لاعلم لهم بربهم ولا بشرعه.

ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم، لا عبرة به، فإن القدح فى الشىء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه، مما يوجب المدح والقدح.

ولهذا ذكر تعالى حكمته فى ذلك فقال: [قل نزله روح القدس] وهو جبريل الرسول، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة.

[من ربك بالحق] أى: نزوله من عند الله بالحق، وهو مشتمل على الحق، فى أخباره، وأوامره، ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحاً صحيحاً، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه، باطل.

[ليثبت الذين آمنوا] عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتاً بعد وقت.

. . . .

فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً ، حتى يكون إيمانهم ، أثبت من الجبال الرواسى .

وأيضاً ، فإنهم يعلمون أنه الحق .

وإذا شرع حكما من الأحكام ، ثم نسخه ، علموا أنه أبدله ، بما هو مثله ، أو خير منه لهم ، وأن نسخه ، هو : المناسب للحكمة الربانية ، والمناسبة العقلية .

[وهدى وبشرى للمسلمين] أى : يهديهم إلى حقائق الأشياء ، ويبين لهم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً ، ماكثين فيه أبداً .

وأيضاً ، فإنه كلما نزل شيئا فشيئاً ، كان أعظم هداية وبشارة لهم ، مما لو أتاهم جملة واحدة ، وتفرق الفكر فيه ، بل ينزل الله حكما وبشارة ، أكثر .

فإذا فهموه وعقلوه ، وعرفوا المراد منه ، وترووا منه ، أنزل نظيره وهكذا .

ولذلك بلغ الصحابة رضى الله عنهم به مبلغاً عظيما ، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم ، وانتقلوا إلى أخلاق ، وعوائد ، وأعمال ، فاقوا بها الأولين والآخرين .

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم ، أن يتربوا بعلومه ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويستضيئوا بنوره فى ظلمات الغى والجهالات ، ويجعلوه إمامهم فى جميع الحالات .

فبذلك ، تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية .

❁ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

---

* يخبر تعالى ، عن قيل[1] المشركين المكذبين لرسوله [أنهم يقولون إنما يعلمه] هذا الكتاب ، الذى جاء به [بشر] .

وذلك البشر ، الذى يشيرون إليه أعجمى اللسان [وهذا] القرآن [لسان عربى مبين] ، هل هذا القول ممكن ؟ أو له حظ من الاحتمال ؟

ولكن الكاذب ، يكذب ، ولا يفكر فيما يئول إليه كذبه .

فيكون فى قوله من التناقض والفساد ، ما يوجب رده ، بمجرد تصوره .

[إن الذين لا يؤمنون بآيات الله] الدالة دلالة صريحة على الحق المبين ، فيردونها ولا يقبلونها .

[لا يهديهم الله] حيث جاءهم الهدى ، فردوه ، فعوقبوا بحرمانه ، وخذلان الله لهم .

[ولهم] فى الآخرة [عذاب أليم] .

---

(١) قيل . أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارىء .

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟

[إنما يفترى الكذب] أى : إنما يصدر افتراء الكذب ، من [الذين لا يؤمنون بآيات الله] كالمعاندين لرسوله ، من بعد ما جاءتهم البينات .

[وأولئك هم الكاذبون] أى : الكذب منحصر فيهم ، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، المؤمن بآيات الله ، الخاضع لربه ، فمحال أن يكذب على الله ، ويتقول عليه ما لم يقل .

فأعداؤه رموه بالكذب ، الذى هو وصفهم فأظهر الله خزيهم ، وبين فضائحهم ، فله تعالى الحمد .

* يخبر تعالى عن شناعة حال [من كفر بالله من بعد إيمانه] فعمى بعد ما أبصر ، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى ، وشرح صدره بالكفر ، راضياً به ، مطمئنا ، أن لهم الغضب الشديد ، من الرب الرحيم ، الذى إذا غضب ، لم يقم لغضبه شىء ، وغضب عليهم كل شىء .

[ولهم عذاب عظيم] أى : فى غاية الشدة ، مع أنه دائم أبداً .

ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

و [ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة] حيث ارتدوا على أدبارهم ، طمعاً فى شيء من حطام الدنيا ، ورغبة فيه ، وزهدا فى خير الآخرة .

فلما اختاروا الكفر على الإيمان ، منعهم الله الهداية ، فلم يهدهم ، لأن الكفر وصفهم .

فطبع على قلوبهم ، فلا يدخلها خير ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ، فلا ينفذ منها ما ينفعهم ، ويصل إلى قلوبهم .

فشملتهم الغفلة ، وأحاط بهم الخذلان ، وحرموا رحمة الله ، التى وسعت كل شيء .

وذلك أنها أتتهم ، فردوها ، وعرضت عليهم ، فلم يقبلوها .

[لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون] الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم يوم القيامة ، وفاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على العذاب الأليم .

وهذا بخلاف من أكره على الكفر ، وأجبر عليه ، وقلبه مطمئن بالإيمان ؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم ، ويجوز له النطق بكلمة الكفر ، عند الإكراه عليها .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ

ودل ذلك ، على أن كلام المكره على الطلاق ، أو العتاق ، أو البيع ، أو الشراء ، أو سائر العقود ، أنه لا عبرة به ، ولا يترتب عليه حكم شرعى.

لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر ، إذا أكره عليها ، فغيرها من باب أولى وأحرى .

* أى : ثم إن ربك ، الذى ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه ، لغفور رحيم ، لمن هاجر فى سبيله ، وخلى(١) دياره وأمواله ، طالبا لمرضاة الله ، وفُتِنَ على دينه ، ليرجع إلى الكفر ، فثبت على الإيمان ، وتخلص ما معه من اليقين .

ثم جاهد أعداء الله ، ليدخلهم فى دين الله ، بلسانه ، ويده ، وصبر على هذه العبادات الشاقة ، على أكثر الناس .

فهذه أكبر الأسباب ، التى ينال بها أعظم العطايا ، وأفضل المواهب ، وهى مغفرة الله للذنوب ، صغارها ، وكبارها ، المتضمن ذلك ، زوال كل أمر مكروه .

---

(١) خلى أى : ترك وطنه ومسقط رأسه وقصد أرضاً يتمكن فيها من إقامة شرائع دينه والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مستظلا بحكم حاكم مسلم لا يقف عقبة فى سبيل الدعاة إلى الله .

تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

ورحمته[1] العظيمة التى بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم .

فلهم الرحمة من الله فى يوم القيامة .

[يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها] كُلٌّ يقول نفسى ، لا يهمه سوى نفسه .

ففى ذلك اليوم ، يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير .

[وتوفى كل نفس ما عملت] من خير وشر [وهم لا يظلمون] فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم] « فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون »

---

(١) ورحمته . معطوف على قوله « مغفرة الله » أى : ينال مغفرة الله ورحمته الخ .

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وهذه القرية هى : مكة المشرفة ، التى كانت آمنة مطمئنة ، لا يهاج ، فيها أحد ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم ، يجد فيها قاتل أبيه وأخيه ، فلا يهيجه[1] مع شدة الحمية فيهم، والنعرة[2] العربية لحصل لها فى مكة ، من الأمن التام ، ما لم يحصل فى سواها وكذلك الرزق الواسع .

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق ، يأتيها من كل مكان .

فجاءهم رسول منهم ، يعرفون أمانته وصدقه ،يدعوهم إلى أكمل الأمور ، وينهاهم عن الأمور السيئة .

فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ، ضد ما كانوا فيه ، وألبسهم لباس الجوع ، الذى هو ضد الرغد ، والخوف ، الذى هو ضد الأمن ، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم ، وعدم شكرهم « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

---

(١) لا يهيجه . أى : لا يزعجه ولا يثيره .

(٢) النعرة : بضم النون وفتح العين : الكبر والخيلاء . اهـ . القاموس

* فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ

---

* يأمر تعالى عباده ، بأكل ما رزقهم الله ، من الحيوانات ، والحبوب ، والثمار ، وغيرها .

[حلالا طيبا] أى : حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله ، أو أثراً من غصب ونحوه .

فتمتعوا بما خلق الله لكم ، من غير إسراف ، ولا تَعَدٍّ .

[واشكروا نعمة الله] بالاعتراف بها ، بالقلب ، والثناء على الله بها ، وصرفها فى طاعة الله .

[إن كنتم إياه تعبدون] أى إن كنتم مخلصين له العبادة ، فلا تشكروا إلا إياه ، ولا تنسوا المنعم .

[إنما حرم عليكم] الأشياء المضرة ، تنزيها لكم .

ومن ذلك : [الميتة] ويدخل فى ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة[1] مشروعة .

---

(١) ذكاة بالذال . أى : الذبح الشرعى ولا يتحقق الذبح الشرعى إلا بقطع الودجين وهما : العرقان الموجودان على يمين العنق وعلى يساره .

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

ويستثنى منه ، ميتة الجراد والسمك ، والدم المسفوح[1] ، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر .

[ولحم الخنزير] لقذارته وخبثه ، وذلك شامل للحمه وشحمه ، وجميع أجزائه .

[وما أهل لغير الله به] كالذى يذبح للأصنام والقبور ونحوها ، لأنه مقصود به الشرك .

[فمن اضطر] إلى شيء من المحرمات — بأن حملته الضرورة ، وخاف إن لم يأكل أن يهلك — فلا جناح عليه إذا كان غير باغ ولا عاد] .

أى : إذا لم يرد أكل المحرم ، وهو غير مضطر ، ولا متعد الحلال إلى الحرام ، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة .

---

(١) فى الأصل المطبوع « والدم المسفوح » وهو خطأ واضح (ولم يقل أحد أن الدم المسفوح حلال أبداً بل هو محرم بنص القرآن القائل « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم على يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير الآية) والدم الحلال أكله هو الكبد والطحال كما قال النبي صلى الله عليه والسلام « أحلت لكم ميتتان ودمان ، السمك والجراد والكبد والطحال » فالعبارة كما ترى قلقة وأمارات التحريف من الناسخ ظاهرة .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

فهذا الذى[1] حرمه الله من المباحات .

[ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام]

أى : لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم ، كذبا ، وافتراء على الله وتقولا عليه .

[لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

ولا بد أن يظهر الله خزيهم ، وإن تمتعوا فى الدنيا ، فإنه [متاع قليل] ومصيرهم إلى النار [ولهم عذاب أليم] .

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات ، تفضلا منه ، وصيانة عن كل مستقذر .

وأما الذين هادوا[2] فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم ، كما قصه فى سورة الأنعام فى قوله : [وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون] .

---

(١) قوله « فهذا الذى حرمه الله الخ » خطأ واضح والصواب «فهذا الذى أباحه الله من المحرمات » .

(٢) الذين هادوا . أى : اليهود .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

---

* وهذا حضٌّ منه لعباده على التوبة ، ودعوة لهم إلى الإنابة .

فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة ، بعاقبة ما تجنى عليه ، ولو كان متعمدا للذنب ، فإنه لا بد أن ينقص ما فى قلبه من العلم ، وقت مقارفة الذنب .

فإذا تاب وأصلح ، بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله ، فإن الله يغفر له ويرحمه ، ويتقبل توبته ، ويعيده إلى حالته الأولى ، أو أعلى منها .

* يخبر تعالى ، عما فضل به خليله ، عليه الصلاة والسلام ، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة ، فقال :

[إن إبراهيم كان أمة] أى : إماما ، جامعاً لخصال الخير ، هاديا مهتدياً .

[قانتا لله] أى : مديما لطاعة ربه ، مخلصا له الدين .

[حنيفا] مقبلا على الله ، بالمحبة ، والإنابة ، والعبودية ، معرضا عمن سواه .

[ولم يك من المشركين] فى قوله وعمله ، وجميع أحواله ، لأنه إمام الموحدين الحنفاء .

ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

[شاكراً لأنعمه] أى : آتاه الله فى الدنيا حسنة ، وأنعم عليه بنعم ، ظاهرة وباطنة ، فقام بشكرها .

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن [اجتباه ربه] ، واختصه بخلته ، وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المقربين .

[وهداه إلى صراط مستقيم] في علمه وعمله ، فعلم[1] بالحق ، وآثره على غيره .

[وآتيناه فى الدنيا حسنة] رزقا واسعا ، وزوجة حسناء ، وذرية صالحين ، وأخلاقا مرضية .

[وإنه فى الآخرة لمن الصالحين] الذين لهم المنازل العالية ، والقرب العظيم من الله تعالى .

ومن أعظم فضائله ، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم ، أن يتبع ملة إبراهيم ، ويقتدى به ، هو ، وأمته .

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب « فعمل » والله أعلم .

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ

---

* يقول تعالى : [إنما جعل السبت] أى : فرضا [على الذين اختلفوا فيه] حين ضلوا عن يوم الجمعة ، وهم اليهود ، فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم فى السبت احترامه وتعظيمه ، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة ، الذى هدى الله هذه الأمة إليه .

[وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] فيبين لهم المحق من المبطل ، والمستحق للثواب ، ممن استحق العذاب .

* أى : ليكن دعاؤك للخلق ، مسلمهم وكافرهم ، إلى سبيل ربك المستقيم ، المشتمل على العلم النافع ، والعمل الصالح .

[بالحكمة] أى : كل أحد على حسب حاله وفهمه ، وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة ، الدعوة بالعلم ، لا بالجهل ، وَالْبَدْأَةِ بالأهم فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين .

فإن انقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة، وهو، الأمر ، والنهى المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهى من المضار وتعدادها .

وإما بذكر إكرام من قام بدين الله ، وإهانة من لم يقم به .

وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين ، من الثواب العاجل والآجل ، وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل .

فإن كان المدعو ، يرى أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلى الباطل ، فيجادل بالتى هى أحسن ، وهى الطرق التى تكون أدعى لاستجابته عقلا و نقلا .

ومن ذلك ، الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها ، فإنه أقرب إلى حصول المقصود ، وأن لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة ، تذهب بمقصودها ، ولا تحصل الفائدة منها ، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها .

وقوله : [إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله] أى : أعلم بالسبب الذى أداه إلى الضلال ، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته ، وسيجازيه عليها .

[وهو أعلم بالمهتدين] علم أنهم يصلحون للهداية ، فهداهم ، ثم مَنَّ عليهم فاجتباهم .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيحاً للعدل ، ونادباً للفضل والإحسان — :

[وإن عاقبتم] من أساء إليكم بالقول والفعل [فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به] من غير زيادة منكم ، على ما أجراه معكم .

[ولئن صبرتم] عن المعاقبة ، وعفوتم عن جرمهم [لهو خير للصابرين] من الاستيفاء ، وما عند الله ، خير لكم ، وأحسن عاقبة كما قال تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله ، والاستعانة بالله على ذلك ، وعدم الاتكال على النفس فقال :

[واصبر وما صبرك إلا بالله] هو الذى يعينك عليه ويثبتك .

[ولا تحزن عليهم] إذا دعوتهم ، فلم تر منهم قبولا لدعوتك ، فإن الحزن لا يجدى عليك شيئاً .

[ولا تك فى ضيق] أى شدة وحرج [مما يمكرون] فإن مكرهم عائد إليهم ، وأنت من المتقين المحسنين .

. . . .

والله مع المتقين المحسنين ، بعونه ، وتوفيقه ، وتسديده ، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصى ، وأحسنوا فى عبادة الله ، بأن عبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم .

والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه .

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين .

تم تفسير سورة النحل — ولله الحمد والمنة

تفســـير

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

---

* ينزه تعالى نفسه المقدسة ، ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة ، التي من جملتها أنه [أسرى بعبده] ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، [ليلا من المسجد الحرام] الذى هو أجل المساجد على الإطلاق [إلى المسجد الأقصى] الذى هو من المساجد الفاضلة ، وهو محل الأنبياء .

فَأُسْرِيَ به فى ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدا ، ورجع فى ليلته .

وأراه الله من آياته ، ما ازداد به هدى وبصيرة ، وثباتا ، وفرقانا .

وهذا من اعتنائه تعالى به ، ولطفه ، حيث يسره لليسرى ، فى جميع أموره ، وخوّله نعما ، فاق بها الأولين والآخرين .

وظاهر الآية ، أن الإسراء كان فى أول الليل ، وأنه من نفس المسجد الحرام .

لـكن ثبت فى الصحيح ، أنه أُسْرِيَ به من بيت أم هانىء .

فعلى هذا ، تـكون الفضيله فى المسجد الحرام ، لسائر الحرم .

إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

فكله تضاعف فيه العبادة ، كتضاعفها فى نفس المسجد .

وأن الإسراء ، بروحه ، وجسده معاً ، وإلا لم يكن فى ذلك آية كبرى ، ومنقبة عظيمة .

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى الإسراء ، وذكر تفاصيل ما رأى ، وأنه أسرى به إلى بيت القدس ، ثم عرج به من هناك ، إلى السموات ، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى ، ورأى الجنة والنار ، والأنبياء على مراتبهم ، وفرض عليه الصلوات خمسين .

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم ، حتى صارت خمسا فى الفعل ، وخمسين فى الأجر والثواب .

وحاز من المفاخر تلك الليلة ، هو وأمته ، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل .

وذكره هنا وفى مقام الإنزال للقرآن ، ومقام التحدى بصفة العبودية ، لأنه نال هذه المقامات الكبار ، بتكميله لعبودية ربه .

وقوله : [الذى باركنا حوله] أى : بكثرة الأشجار والأنهار ، والخصب الدائم .

ومن بركته ، تفضيله على غيره من المساجد ، سوى المسجد الحرام ، ومسجد المدينة .

وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه ، وأن الله اختصه محلا ، لكثير من أنبيائه وأصفيائه

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ

---

* كثيراً ما يقرن البارى بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة موسى صلى الله عليه وسلم ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين .

ولهذا قال هنا : [وآتينا موسى الكتاب] الذى هو التوراة [وجعلناه هدى لبنى إسرائيل] يهتدون به فى ظلمات الجهل إلى العلم بالحق .

[ألا تتخذوا من دونى وكيلا] أى : وقلنا لهم ذلك ، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ، ليعبدوا الله وحده ، وينيبوا إليه ، ويتخذوه وحده ، وكيلا ومدبراً لهم ، فى أمر دينهم ودنياهم ، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً ، ولا ينفعونهم بشىء .

[ذرية من حملنا مع نوح] أى : يا ذرية من مننا عليهم ، وحملناهم مع نوح .

[إنه كان عبداً شكوراً] ففيه التنويه بالثناء على نوح ، عليه السلام ، بقيامه بشكر الله ، واتصافه بذلك ، والحث لذريته ، أن يقتدوا به فى شكره ويتابعوه عليه ، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، إذ أبقاهم واستخلفهم فى الأرض ، وأغرق غيرهم .

[وقضينا إلى بنى إسرائيل] أى تقدمنا وعهدنا إليهم ، وأخبرناهم

لَتُفسِدُنَّ فِى ٱلأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ

فى كتابهم ، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد فى الأرض مرتين بعمل المعاصى والبطر لنعم الله ، والعلو فى الأرض والتكبر فيها ، وأنه إذا وقع واحدة منهما ، سلط الله عليهم الأعداء ، وانتقم منهم ، وهذا تحذير لهم وإنذار ، لعلهم يرجعون فيتذكرون .

[فإذا جاء وعد أولاهما] أى : أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما .

أى : إذا وقع منهم ذلك الفساد [بعثنا عليكم] بعثاً قدريا ، وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا [عباداً لنا أولى بأس شديد] أى : ذوى شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم ، فقتلوكم وسبوا أولادكم ، ونهبوا أموالكم .

[فجاسوا خلال الديار] وهتكوا الدور ، ودخلوا المسجد الحرام ، وأفسدوه .

[وكان وعداً مفعولا] لا بد من وقوعه ، لوجود سببه منهم .

واختلف المفسرون ، فى تعيين هؤلاء المسلطين ، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار .

إما من أهل العراق ، أو الجزيرة ، أو غيرها سلطهم الله على بنى إسرائيل ، لما كثرت فيهم المعاصى ، وتركوا كثيراً ، من شريعتهم ، وطغوا فى الأرض .

عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ

[ثم رددنا لكم الكرة عليهم] أى : على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم .

[وأمددناكم بأموال وبنين] أى : أكثرنا أرزاقكم ، وكثرناكم ، وقويناكم عليهم .

[وجعلناكم أكثر نفيراً] منهم ، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله .

[وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم] لأن النفع عائد إليكم ، حتى فى الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم .

[إن أسأتم فلها] أى : فلأنفسكم ، يعود الضرر كما أراكم الله ، من تسليط الأعداء .

[فإذا جاء وعد الآخرة] أى : المرة الأخرى ، التى تفسدون فيها فى الأرض ، سلطنا عليكم الأعداء .

[ليسوءوا وجوهكم] بانتصارهم عليكم وسبيكم [وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة] والمراد بالمسجد ، مسجد بيت المقدس .

[وليتبروا] أى: يخربوا ويدمروا [ما علوا] عليه [تتبيرا] فيخربوا بيوتكم ، ومساجدكم ، وحروثكم .

وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

[عسى ربكم أن يرحمكم] فيديل[1] لكم الكرة عليهم .

فرحمهم ، وجعل لهم الدولة ، وتوعدهم على المعاصى فقال :

[وإن عدتم] إلى الإفساد فى الأرض [عدنا] إلى عقوبتكم .

فعادوا لذلك ، فسلط الله عليهم رسوله ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، فانتقم الله به منهم .

فهذا جزاء الدنيا ، وما عند الله من النكال ، وأعظم وأشنع ، ولهذا قال :

[وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا] يصلونها ، ويلازمونها ، لايخرجون منها أبداً .

وفى هذه الآيات التحذير لهذه الأمة ، من العمل بالمعاصى لئلا يصيبهم، ما أصاب بنى إسرائيل .

فسنة الله واحدة ، لاتبدل ولاتغير .

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك ، من أجل ذنوبهم ، عقوبة لهم ، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله ، وسنة رسوله ، مكّن لهم فى الأرض ، ونصرهم على أعدائهم .

---

(١) فيديل لكم . أى : ينصركم عليهم .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته ، وأنه [يهدى للتى هى أقوم] أى : أعدل وأعلى ، من العقائد ، والأعمال ، والأخلاق .

فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن ، كان أكمل الناس ، وأقومهم ، وأهداهم فى جميع الأمور .

[ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات] من الواجبات والسنن .

[أن لهم أجراً كبيراً] أعده الله لهم فى دار كرامته ، لا يعلم وصفه إلا هو .

[وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما] ، فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة ، وذكر الأسباب التى تنال بها البشارة ، وهو الإيمان ، والعمل الصالح ، والتى تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك .

* وهذا من جهل الإنسان وعجلته ، حيث يدعو على نفسه وأولاده بالشر عند الغضب ، ويبادر بذلك الدعاء ، كما يبادر بالدعاء فى الخير ، ولكن الله — من لطفه — يستجيب له فى الخير ، ولا يستجيب له بالشر .

« ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم » .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ

---

* يقول تعالى : [وجعلنا الليل والنهار آيتين] أى : دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته ، وأنه الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[فمحونا آية الليل] أى : جعلناه مظلما ، للسكون فيه ، والراحة .

[وجعلنا آية النهار مبصرة] أى : مضيئة [لتبتغوا فضلا من ربكم] فى معايشكم ، وصنائعكم ، وتجاراتكم ، وأسفاركم .

[ولتعلموا] بتوالى الليل والنهار واختلاف القمر [عدد السنين والحساب] فتبنون عليها ما تشاءون ، من مصالحكم .

[وكل شيء فصلناه تفصيلا] أى : بينا الآيات ، وصرفناه ، لتتميز الأشياء ، ويتبين الحق من الباطل ، كما قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .

* وهذا إخبار عن كمال عدله ، أن كل إنسان يلزمه طائره فى عنقه ، أى : ما عمل من خير وشر ، يجعله الله ملازماً له ، لا يتعداه إلى غيره ، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله .

[ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً] فيه عمله ، من الخير

بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

والشر ، حاضراً ، صغيره وكبيره ، ويقال له : [اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا].

وهذا من أعظم العدل والإنصاف ، أن يقال للعبد : حاسب نفسك ، ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب .

* أى : هداية كل أحد وضلاله لنفسه ، ولا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر .

والله تعالى ، أعدل العادلين ، لا يعذب أحداً ، حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، ثم يعاند الحجة .

وأما من انقاد للحجة ، أو لم تبلغه حجة الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يعذبه .

استدل بهذه الآية ، على أن أهل الفترات ، وأطفال المشركين ، لايعذبهم الله ، حتى يبعث إليهم رسولا ، لأنه منزه عن الظلم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن

---

* يخبر تعالى ، أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ، ويستأصلها بالعذاب ، أمر مترفيها ، أمراً قدريا ، ففسقوا فيها ، واشتد طغيانهم .

[فحق عليها القول] أى : كلمة العذاب التى لا مرد لها [فدمرناها تدميراً] .

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب ، من بعد قوم نوح ، كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم ، من عاقبهم الله ، لما كثر بغيهم ، واشتد كفرهم ، أنزل الله بهم عقابه العظيم .

[وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً] فلا يخافون منه ظلما ، وأنه يعاقبهم على ما عملوه .

* يخبر تعالى أن [من كان يريد العاجلة] أى : الدنيا المنقضية الزائلة ، فعمل لها ، وسعى ، ونسى المبتدأ أو المنتهى ، أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ، ما يشاؤه ويريده ، مما كتب الله له فى اللوح المحفوظ ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له .

نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ

ثم يجعل له فى الآخرة [جهنم يصلاها] أى يباشر عذابها [مذموماً مدحورا] أى : فى حالة الخزى والفضيحة والذم من الله ، ومن خلقه ، والبعد عن رحمة الله ، فيجمع له العذاب والفضيحة .

[ومن أراد الآخرة] فرضيها وآثرها على الدنيا [وسعى لها سعيها] الذى دعت إليه الكتب السماوية ، والآثار النبوية ، فعمل بذلك على قدر إمكانه [وهو مؤمن] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[فأولئك كان سعيهم مشكوراً] أى : مقبولا مُنَمًّى ، مدخراً ، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم .

ومع هذا ، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا ، فكلا يمده الله منها ، لأنه عطاؤه وإحسانه

[وما كان عطاء ربك محظوراً] أى : ممنوعاً من أحد ، بل جميع الخلق راتعون بفضله وإحسانه .

[انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض] فى الدنيا ، بسعة الأرزاق وقلتها ، واليسر والعسر ، والعلم والجهل ، والعقل والسفه ، وغير ذلك من الأمور التى فضل الله العباد بعضهم على بعض بها .

بَعْضٍ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

[وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا] فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها ، إلى الآخرة ، بوجه من الوجوه .

فكم بين من هو فى الغرف العاليات ، واللذات المتنوعات ، والسرور والخيرات والأفراح ، ممن هو يتقلب فى الجحيم ، ويعذب بالعذاب الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم ، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت مالا يمكن أحداً عده .

* أى : لاتعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئا من العبادة ، ولا تشرك بالله أحدا منهم ، فإن ذلك داع للذم والخذلان .

فالله ، وملائكته ، ورسله ، قد نهوا عن الشرك ، وذموا من عمله أشد الذم ، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة ، والأوصاف المقبوحة ، ما كان به متعاطيه ، وأشنع الخلق وصفا ، وأقبحهم نعتا .

وله من الخذلان فى أمر دينه ودنياه ، بحسب ما تركه ، من التعلق بربه .

فمن تعلق بغيره ، فهو مخذول ، قد وكل إلى من تعلق به ، ولا أحد من الخلق ينفع أحداً ، إلا بإذن الله .

كما أن من جعل مع الله إلها آخر ، له الذم والخذلان .

فمن وحده ، وأخلص دينه لله ، وتعلق به دون غيره ، فإنه محمود معان فى جميع أحواله .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ

---

* لما نهى تعالى عن الشرك به ، أمر بالتوحيد ، فقال : [وقضى ربك] قضاء دينيا ، وأمراً شرعياً .

[أن لا تعبدوا] أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات .

[إلا إياه] لأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له كل صفة كمال ، وله من كل صفة أعظمها ، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه ، وهو المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، الدافع لجميع النقم ، الخالق ، الرازق ، المدبر لجميع الأمور .

فهو المتفرد بذلك كله ، وغيره ليس له من ذلك شىء .

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال : [وبالوالدين إحسانا] .

أى : أحسنوا إليهما ، بجميع وجوه الإحسان ، القول والفعلى ، لأنهما سبب وجود العبد ، ولهما من المحبة للولد ، والإحسان إليه ، والقرب ، ما يقتضى تأكد الحق ، ووجوب البر .

[إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما] أى : إذا وصلا إلى هذا السن ، الذى تضعف فيه قواهما ، ويحتاجان من اللطف والإحسان ، ما هو معروف .

[فلا تقل لهما أف] وهذا أدنى مراتب الأذى ، نبه به على ما سواه .

لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

والمعنى ، لا تؤذهما أدنى أذية .

[ولا تنهرهما] أى : تزجرهما ، وتتكلم كلاماً خشناً .

[وقل لهما قولا كريما] بلفظ يحبانه ، وتأدب ، وتلطف معهما ، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما ، وتطمئن به نفوسهما . وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد ، والأزمان .

[واخفض لهما جناح الذل من الرحمة] أى : تواضع لهما ، ذلا لهما ، ورحمة ، واحتسابا للأجر ، لا لأجل الخوف منهما ، أو الرجاء لما لهما ، ونحو ذلك من المقاصد ، التى لا يؤجر عليها العبد .

[وقل رب ارحمهما] أى : ادع لهما بالرحمة أحياء ، وأمواتاً . جزاء على تربيتهما إياك ، صغيراً .

وفهم من هذا ، أنه كلما ازدادت التربية ، ازداد الحق .

وكذلك من تولى تربية الإنسان فى دينه ودنياه ، تربية صالحة غير الأبوين ، فإن له على من رباه ، حق التربية .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

---

* أى : ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم ، من خير وشر ، وهو لاينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

[إن تكونوا صالحين] بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم ، دائرة على مرضاة الله ، ورغبتكم فيما يقربكم إليه ، وليس فى قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله .

[فإنه كان للأولين] أى : الرجاعين إليه فى جميع الأوقات [غفوراً] .

فمن اطلع الله على قلبه ، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه ومحبته ، ومحبة ما يقرب إليه ، فإنه ، وإن جرى منه فى بعض الأوقات ، ما هو مقتضى الطبائع البشرية ، فإن الله يعفو عنه ، ويغفر له الأمور العارضة ، غير المستقرة .

* يقول تعالى : [وآت ذا القربى حقه] من البر والإكرام ، الواجب والمسنون ، وذلك الحق ، يتفاوت بتفاوت الأحوال ، والأقارب ، والحاجة وعدمها ، والأزمنة .

[والمسكين] آته حقه من الزكاة ومن غيرها ، لتزول مسكنته [وابن السبيل] وهو : الغريب المنقطع به عن بلده .

وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

[ولا تبذر تبذيراً] يعطى الجميع من المال ، على وجه لا يضر المعطى ، ولا يكون زائدا على المقدار اللائق ، فإن ذلك تبذير ، قد نهى الله عنه وأخبر :

[إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين] لأن الشيطان ، لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة ، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك ، فإذا عصاه ، دعاه إلى الإسراف والتبذير .

والله تعالى ، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ، ويمدح عليه ، كما فى قوله ، عن عباد الرحمن الأبرار « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

وقال هنا : [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك] كناية عن شدة الإمساك والبخل .

[ولا تبسطها كل البسط] فتنفق فيما لاينبغى ، وزيادة على ما ينبغى .

[فتقعد] إن فعلت ذلك [ملوماً] أى : تلام على مافعلت [محسورا] أى : حاسر اليد فارغها ، فلا بقى ما فى يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء .

مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وهذا الأمر بإيتاء ذى القربى ، مع القدرة والغنى .

فأما مع العدم ، أو تعسر النفقة الحاضرة ، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا ردًّا جميلا فقال :

[وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها] أى : تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر ، ترجو فيه من الله تيسير الأمر .

[فقل لهم قولا ميسوراً] أى : لطيفا برفق ، ووعد بالجميل ، عند سنوح الفرصة ، واعتذار بعدم الإمكان ، فى الوقت الحاضر ، لينقلبوا عنك ، مطمئنة خواطرهم ، كما قال تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » .

وهذا أيضاً ، من لطف الله تعالى بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه ، لأن انتظار ذلك ، عبادة .

وكذلك وَعْدُهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر ، عبادة حاضرة ، لأن الهم بفعل الحسنة ، حسنة .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، وينوى فعل مالم يقدر عليه ، ليثاب على ذلك ، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه .

ثم قال تعالى : [إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء] من عباده [ويقدر] أى : يضيقه على من يشاء ، حكمة منه .

[إنه كان بعباده خبيرا بصيرا] فيجزيهم على ما يعلمه صالحا لهم ، ويدبرهم ، بلطفه وكرمه .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* وهذا من رحمته بعباده ، حيث كان أرحم بهم من والديهم .

فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم ، خوفا من الفقر والإملاق ، وتكفل برزق الجميع .

وأخبر أن قتلهم كان خطئا كبيراً ، أى من أعظم كبائر الذنوب ، لزوال الرحمة من القلب ، والعقوق العظيم والتجرى على قتل الأطفال ، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية .

* النهى عن قربان الزنى أبلغ من النهى عن مجرد فعله ، لأن ذلك يشمل النهى عن جميع مقدماته ودواعيه ، فإن « من حام حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه » .

خصوصاً هذا الأمر ، الذى فى كثير من النفوس ، أقوى داع إليه .

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه [كان فاحشة] أى : إنما يستفحش فى الشرع والعقل ، والفطر ، لتضمنه التجرى على الحرمة فى حق الله ، وحق المرأة ، وحق أهلها ، أو زوجها ، وإفساد الفراش ، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد .

وقوله [وساء سبيلا] أى : بئس السبيل ، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم .

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

وهذا شامل لـكل نفس [حرم الله قتلها] من صغير ، وكبير ، وذكر وأنثى ، وحر ، وعبد ، ومسلم ، وكافر له عهد .

[إلا بالحق] كالنفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة ، والباغى فى حال بغيه ، إذا لم يندفع إلا بالقتل .

[ومن قتل مظلوما] أى بغير حق [فقد جعلنا لوليه] وهو ، أقرب عصباته وورثته إليه [سلطانا] أى : حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضاً تسلطا قدرياً على ذلك.

وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص ، كالعمد العدوان ، والمـكافأة .

[فلا يسرف] الولى [فى القتل إنه كان منصوراً] .

والإسراف ، مجاوزة الحد ، إما أن يمثل بالقاتل ، أو يقتله بغير ما قتل به ، أو يقتل غير القاتل .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الحق فى القتل للوَلِى ، فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا ، سقط القصاص .

وأن وَلِيّ المقتول ، يعينه الله على القـاتل ، ومن أعانه ، حتى يتمكن من قتله .

﴿ وَلَا تَقرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ

---

* وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم ، الذى فقد والده ، وهو صغير ، غير عارف بمصلحة نفسه ، ولا قائم بها ، أن أمر أولياءه بحفظه ، وحفظ ماله ، وإصلاحه ، وأن لا يقربوه [إلا بالتى هى أحسن] من التجارة فيه ، وعدم تعريضه للأخطار ، والحرص على تنميته .

وذلك ممتد إلى أن [يبلغ اليتيم أشده] أى : بلوغه ، وعقله ، ورشده .

فإذا بلغ أشده ، زالت عنه الولاية ، وصار ولى نفسه ، ودفع إليه ماله .

كما قال تعالى « فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » .

[وأوفوا بالعهد] الذى عاهدتم الله عليه ، والذى عاهدتم الخلق عليه .

[إن العهد كان مسئولا] أى : مسئولون عن الوفاء به .

فإن وفيتم ، فلكم الثواب الجزيل ، وإن لم تفعلوا ، فعليكم الإثم العظيم .

* وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط ، من غير بخس ولا نقص .

ويؤخذ من عموم المعنى ، النهى عن كل غش ، أو مثمن ، أو معقود عليه ، والأمر بالنصح ، والصدق فى المعاملة .

ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ

[ذلك خير] من عدمه [وأحسن تأويلا] أى : أحسن عاقبة به ، يسلم العبد من التبعات ، وبه تنزل البركة .

* أى : ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تَثَبَّتْ فى كل ما تقوله وتفعله .

فلا تظن ذلك يذهب ، لا لك ولا عليك .

[إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا] لحقيق بالعبد الذى يعرف أنه مسئول ، عما قاله وفعله ، وعما استعمل به جوارحه التى خلقها الله لعبادته ، أن يُعِدَّ للسؤال جواباً .

وذلك لا يكون ، إلا باستعمالها ، بعبودية الله ، وإخلاص الدين له ، وكفها عما يكرهه الله تعالى .

* يقول تعالى : [ولا تمش فى الأرض مرحاً] أى : كبرا وتيهاوبطرا ، متكبرا على الحق ، ومتعاظما فى تكبرك على الخلق .

[إنك] فى فعلك ذلك [لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا] .
بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق ، مبغوضا ممقوتا ، قد اكتسبت شر الأخلاق ، واكتسيت بأرذلها ، من غير إدراك لبعض ما تروم .

وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

[كل ذلك] المذكور الذى نهى الله عنه فيما تقدم من قوله «ولا تجعل مع الله إلها آخر » والنهى عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك [كان سيئه عند ربك مكروها] أى : كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه .

[ذلك] الذى بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة .

[مما أوحى إليك ربك من الحكمة] فإن الحكمة ، الأمر بمحاسن الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، والنهى عن أراذل الأخلاق ، وأسوإ الأعمال .

وهذه الأعمال المذكورة فى هذه الآيات ، من الحكمة العالية ، التى أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين ، فى أشرف الكتب ، ليأمر بها أفضل الأمم ، فهى من الحكمة ، التى من أوتيها ، فقد أوتى خيرا كثيرا .

ثم ختمها بالنهى عن عبادة غير الله ، كما افتتحها بذلك فقال :

[ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم] أى : خالدا مخلدا ، فإنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار .

[ملوما مدحورا] أى : قد لحقتك اللائمة ، واللعنة ، والذم من الله ، وملائكته ، والناس أجمعين .

﴿ أَفَأَصْفَـٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ

---

* وهذا إنكار شديد ، على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال : [أفأصفاكم ربكم بالبنين] أى : اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثا ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

[إنكم لتقولون قولا عظيما] فيه أعظم الجرأة على الله ، حيث نسبتم له الولد المتضمن لحاجته ، واستغناء بعض المخلوقات عنه ، وحكمتم له بأردأ القسمين ، وهو الإناث وهو الذى خلقكم ،واصطفاكم بالذكور، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

* يخبر تعالى ، أنه صرّف لعباده ، فى هذا القرآن ، أى نوّع الأحكام ، ووضحها ، وأكثر من الأدلة والبراهين ، على ما دعا إليه ، ووعظ وذكّر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه ، وما يضرهم فيدعوه .

ولكن أبى أكثر الناس ، إلا نفوراً عن آيات الله ، لبغضهم للحق ، ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل ، حتى تعصبوا لباطلهم ، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً ، ولا ألقوا لها بالا .

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة ، التوحيد الذى هو أصل الأصول .

فأمر به ، ونهى عن ضده ، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية ، شيئاً كثيراً ، بحيث أن من أصغى إلى بعضها ، لا تدع فى قلبه، شكاولا ريبا .

إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

ومن الأدلة على ذلك ، هذا الدليل العقلى الذى ذكره هنا فقال :

[قل] للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر :

[لو كان معه آلهة كما يقولون] أى : على موجب زعمهم وافترائهم [إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا] أى : لاتخذوا سبيلا إلى الله بعبادته ، والإنابة إليه ، والتقرب وابتغاء الوسيلة .

فكيف يجعل العبد الفقير ، الذى يرى شدة افتقاره لعبودية ربه ، إلها مع الله ؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه ؟!! .

فعلى هذا المعنى ، تكون هذه الآية كقوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » .

وكقوله تعالى: « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » .

ويحتمل أن المعنى فى قوله [قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا] أى : لطلبوا السبيل ، وسعوا فى مغالبة الله تعالى .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

فإما أن يعلوا عليه[1] فيكون من علا وقهر ، هو الرب الإله .

فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم ، التي يدعون من دون الله مقهورة مغلوبة ، ليس لها من الأمر شيء ، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال ؟

فيكون هذا كقوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

[سبحانه وتعالى] أي : تقدس وتنزه وعلت أوصافه [عما يقولون] من الشرك به ، واتخاذ الأنداد معه [علوا كبيرا] فعلا قدره ، وعظم ، وجلت كبرياؤه ، التي لا تقادر ، أن يكون معه آلهة ، فقد ضل من قال ذلك ، ضلالا مبينا ، وظلم ظلما كبيرا .

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة ، وصغرت لدى كبريائه ، السموات السبع ، ومن فيهن ، والأرضون السبع ، ومن فيهن « والأرض جميعاً ، قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » .

---

(١) قوله (فإما أن يعلوا عليه الخ) في العبارة إيهام .

والأوضح أن يقال : « فإما أن يعلوا عليه ، فيكون من علا وقهر هو الرب ، الإله .

وإما أن يقروا أن آلهتهم التي يدعون من دون الله ، مقهورة مغلوبة ، ليس لها من الأمر شيء ، وهم مقرون ومعترفون بذلك .

فلم اتخذوها آلهة ، وهي بهذه الحال » ؟ فبهذا تستقيم العبارة وتتضح .

. . . .

وافتقر إليه ، العالم العلوى والسفلى ، فقرا ذاتيا ، لا ينفك عن أحد منهم فى وقت من الأوقات .

هذا الفقر بجميع وجوهه ، فقر من جهة الخلق ، والرزق ، والتدبير .

وفقر من جهة الاضطرار ، إلى أن يكون معبوده ومحبوبه ، الذى إليه يتقربون وإليه فى كل حال يفزعون . ولهذا قال :

[تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء] من حيوان ناطق ، وغير ناطق ، ومن أشجار ، ونبات ، وجامد ، وحىٍّ وميت [إلا يسبح بحمده] بلسان الحال ، ولسان المقال .

[ولكن لا تفقهون تسبيحهم] أى : تسبيح باقى المخلوقات ، التى على غير لغتكم .

بل يحيط بها علام الغيوب .

[إنه كان حليما غفورا] حيث لم يعاجل بالعقوبة ، من قال فيه قولا ، تكاد السموات والأرض تتفطر منه وتخر له الجبال .

ولكنه أمهلهم ، وأنعم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم ، ودعاهم إلى بابه ، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ، ليعطيهم الثواب الجزيل ، ويغفرلهم ذنبهم .

فلولا حلمه ومغفرته ، لسقطت السموات على الأرض ، ولما ترك على ظهرها من دابة .

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ

---

* يخبر تعالى، عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه، وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال :

[وإذا قرأت القرآن] الذى فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير، والعلم الكثير.

[جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا] يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد إلى ما يدعو إليه من الخير.

[وجعلنا على قلوبهم أكنة] أى : أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونه سماعاً تقوم به عليهم الحجة.

[وفى آذانهم وقرا] أى : صمما عن سماعه.

[وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده] داعيا لتوحيده، ناهياً عن الشرك به.

[ولوا على أدبارهم نفورا] من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل.

كما قال تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ».

إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

[نحن أعلم بما يستمعون به] أى : إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن ، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة ، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ، ليقدحوا به .

وليس استماعهم لأجل الاسترشاد ، وقبول الحق ، وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه .

ومن كان بهذه الحالة ، لم يفده الاستماع شيئا ، ولهذا قال :

[إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى] أى : متناجين [إذ يقول الظالمون] فى مناجاتهم :

[إن تتبعون إلا رجلا مسحورا] فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم ، وقد بنوها على أنه مسحور ، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال ، وأنه يهذى ، لا يدرى ما يقول .

قال تعالى : [انظر] متعجبا [كيف ضربوا لك الأمثال] التى هى أضل الأمثال ، وأبعدها عن الصواب .

[فضلوا] فى ذلك ، أو صارت سبباً لضلالهم لأنهم بنوا عليها أمرهم ، والمبنى على فاسد ، أفسد منه .

[فلا يستطيعون سبيلا] أى : لا يهتدون أىّ اهتداء ، فنصيبهم الضلال المحض ، والظلم الصّرف .

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ

---

* يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث ، وتكذيبهم به ، واستبعادهم بقولهم: [أإذا كنا عظاما ورفاتا] أى : أجسادا بالية [أإنا لمبعوثون خلقاً جديدا] أى : لا يكون ذلك ، وهو محال بزعمهم .

فجهلوا أشد الجهل ، حيث كذبوا رسول الله ، وجحدوا آيات الله ، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض ، بقدرهم الضعيفة العاجزة .

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم ، لا يقدرون عليه ، جعلوا قدرة الله كذلك .

فسبحان من جعل خلقا من خلقه ، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب ، مثالا فى جهل . أظهر الأشياء ، وأجلاها ، وأوضحها براهين ، وأعلاها ليرى عباده ، أنه ما ثَمَّ إلا توفيقه وإعانته ، أو الهلاك والضلال .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادا :

[قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقا مما يكبر] أى : يعظم [فى صدوركم] لتسلموا بذلك على زعمكم ، من أن تنالكم قدرة الله ، أو تنفذ فيكم مشيئته .

فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ

فإنكم غير معجزين الله ، فى أى حالة تكونون ، وعلى أى وصف تتحولون .

وليس فى أنفسكم ، تدبير فى حالة الحياة ، وبعد الممات .

فدعوا التدبير والتصريف ، لمن هو على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط .

[فسيقولون] حين تقيم عليهم الحجة فى البعث : [من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة] فكما فطركم ، ولم تكونوا شيئاً مذكورا ، فإنه سيعيدكم خلقا جديدا « كما بدأنا أول خلق نعيده » .

[فسينغضون إليك رءوسهم] أى : يهزونها ، إنكارا وتعجبا ، مما قلت.

[ويقولون متى هو] أى : متى وقت البعث ، الذى تزعمه على قولك ؟

[ولا إقرار منهم لأصل البعث ، بل ذلك سَفَهٌ منهم ، وتعجيز .

[قل عسى أن يكون قريبا] فليس فى تعيين وقته فائدة .

وإنما الفائدة والمدار ، على تقريره ، والإقرار به ، وإثباته ، وإلا فكما هو آت ، فإنه قريب .

[يوم يدعوكم] للبعث والنشور ، وينفخ فى الصور

[فتستجيبون بحمده] أى : تنقادون لأمره ، ولا تستعصون عليه .

وقوله « بحمده » أى : هو المحمود تعالى ، على فعله ، ويجزى به العباد ، إذا جمعهم ليوم التناد .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ

[وتظنون إن لبثتم إلا قليلا] من سرعة وقوعه ، وأن الذى مرعليكم من النعيم ، كأنه ما كان .

فهذا الذى يقول عنه المنكرون: « متى هو » ؟ يندمون غاية الندم ، عند وروده ، ويقال لهم : « هذا الذى كنتم به تكذبون » .

* وهذا من لطفه بعباده ، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق ، والأعمال ، والأقوال ، الموجبة للسعادة ، فى الدنيا والآخرة فقال :

[وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن] وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله ، من قراءة ، وذكر ، وعلم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وكلام حسن لطيف ، مع الخلق ، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم .

وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنه يأمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن ، داع لكل خلق جميل ، وعمل صالح ، فإن من ملك لسانه ، ملك جميع أمره .

وقوله : [إن الشيطان ينزغ بينهم] أى : يسعى بين العباد ، بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم .

فدواء هذا ، أن لا يطيعوه فى الأقوال غيرالحسنة ، التى يدعوهم إليها .

أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

وأن يلينوا فيما بينهم ، لينقمع الشيطان ، الذى ينزغ بينهم ، فإنه عدوهم الحقيقى ، الذى ينبغى لهم أن يحاربوه ، فإنه يدعوهم « ليكونوا من أصحاب السعير » .

وأما إخوانهم ، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم ،وسعى فى العداوة، فإن الحزم كل الحزم ، السعى فى ضد عدوهم ، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء ، التى يدخل الشيطان من قِبَلِها ، فبذلك يطيعون ربهم ، ويستقيم أمرهم ، ويهدون لرشدهم .

[ربكم أعلم بكم] من أنفسكم ، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير ، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم ، وقد تريدون شيئا والخير فى عكسه .

[إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم] فيوفق من شاء لأسباب الرحمة ، ويخذل من شاء ، فيضل عنها ، فيستحق العذاب .

[وما أرسلناك عليهم وكيلا] تدبر أمرهم ، وتقوم بمجازاتهم ، وإنما الله ، هو الوكيل ، وأنت مبلغ هاد ، إلى صراط مستقيم .

[وربك أعلم بمن فى السموات والأرض] من جميع أصناف الخلائق ، فيعطى كلا منهم ، ما يستحقه ، وتقتضيه حكمته ، ويفضل بعضهم على بعض ، فى جميع الخصال الحسية ، والمعنوية ، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه، على بعض ، بالفضائل ، والخصائص الراجعة الى مامَنَّ به عليهم ، من الأوصاف

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

الممدوحة ، والأخلاق المرضية ، والأعمال الصالحة ، وكثرة الأتباع ، ونزول الكتب على بعضهم ، المشتملة على الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

كما أنزل على داود زبورا ، وهو الكتاب المعروف .

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض ، وآتى بعضهم كتباً ، فلم ينكر المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب .

* يقول تعالى [قل] للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم ، كما يعبدون الله ، ويدعونهم كما يدعونه ، ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين .

[ادعوا الذين زعمتم] آلهة [من دونه] فانظروا هل ينفعونكم ، أو يدفعون عنكم الضر .

[فلا يملكون كشف الضر عنكم] من مرض ، أو فقر ، أو شدة ونحو ذلك ، فلا يدفعونه بالكلية .

[و] لا يملكون أيضا [تحويلا] له من شخص إلى آخر ، من شدة إلى ما دونها .

فإذا كانوا بهذه الصفة فلأى شيء تدعوهم من دون الله ؟ فإنهم لا كمال لهم ، ولا فعال نافعة . فاتخاذهم آلهة نقص فى الدين والعقل ، وسفه فى الرأى .

يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

ومن العجب ، أن السفه عند الاعتياد والممارسة ، وتلقِّيه عن الآباء الضالين بالقبول ، يراه صاحبه ، هو الرأى السديد ، والعقل المفيد .

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة ، هو السفه ، والأمر المتعجب منه ، كما قال المشركون : « أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب » .

ثم أخبر أيضاً ، أن الذين يعبدونهم من دون الله ، فى شغل شاغل عنهم ، باهتمامهم بالافتقار إلى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه فقال :

[أولئك الذين يدعون] من الأنبياء والصالحين والملائكة [يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب] أى: يتنافسون فى القرب من ربهم ، ويبذلون ما يقدرون عليه ، من الأعمال الصالحة ، المقربة إلى الله تعالى :

[ويرجون رحمته ويخافون عذابه] فيجتنبون كل مايوصل إلى العذاب.

[إن عذاب ربك كان محذوراً] أى : هو الذى ينبغى شدة الحذر منه والتوقِّى من أسبابه .

وهذه الأمور الثلاثة ، الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، التى وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده ، هى الأصل ، والمادة فى كل خير .

فمن تمت له ، تمت له أموره ، وإذا خـلا القلب منها ، ترحلت عنه الخيرات ، وأحاطت به الشرور .

وعلامة المحبة ، ما ذكره الله ، أن يجتهد العبد فى كل محل يقربه إلى الله

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا

وينافس فى قربه بإخلاص الأعمال كلها لله ، والنصح فيها ، وإيقاعها فى أكمل الوجوه المقدور عليها .

فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك ، فهو كاذب .

* أى : ما من قرية من القرى المكذبة للرسل ، إلا ، لا بد أن يصيبهم هلاك يوم القيامة ، أو عذاب شديد ، كتاب كتبه الله ، وقضاء أبرمه ، لا بد من وقوعه .

فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله ، وتصديق رسله ، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب ، ويحق عليهم القول .

* يذكر تعالى رحمته ، بعدم إنزاله الآيات ، التى اقترحها[1] المكذبون ، وأنه ما منعه أن يرسلها ، إلا خوفا من تكذيبهم لها .

فإذا كذبوا بها ، عاجلهم العقاب ، وحل بهم من غير تأخير ، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يقترح بها » وهو خطأ لا يتمشى مع القواعد العربية فلذلك أبدلنا الكلمة بـ « اقترحها » .

ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا

ومن أعظم الآيات ، الآية التى أرسلها الله إلى ثمود ، وهى الناقة العظيمة الباهرة ، التى كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ، ومع ذلك ، كذبوا بها ، فأصابهم ما قص الله علينا فى كتابه .

وهؤلاء كذلك ، لو جاءتهم الآيات الكبار ، لم يؤمنوا .

فإنه ما منعهم من الإيمان ، خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه ، هل هو حق أو باطل ؟

فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة ، بما دل على صحة ماجاء به ، الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها ، فلا بد أن يسلكوا بها ، ما سلكوا بغيرها ، فترك إنزالها والحالة هذه ، خير لهم وأنفع .

وقوله : [وما نرسل بالآيات إلا تخويفا] أى : لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان ، الذى لا يحصل إلا بها .

بل المقصود منها ، التخويف والترهيب ، ليرتدعوا عن ماهم عليه .

[وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس] علما وقدرة ، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه ، ولا ملاذ ، يلوذون به عنه .

وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذى أحاط بالناس .

ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾

[وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة] أكثر المفسرين على أنها ليلة الإسراء .

[والشجرة الملعونة] التى ذكرت [فى القرآن] وهى شجرة الزقوم ، التى تنبت فى أصل الجحيم .

والمعنى ، إذا كان هذان الأمران ، قد صارا فتنة للناس ، حتى استلج[1] الكفار بكفرهم ، وازداد شرهم ، وبعض من كان إيمانه ضعيفا ، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور ، التى كانت ليلة الإسراء ، ومن الإسراء من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ، كان خارقاً للعادة .

والإخبار بوجود شجرة ، تنبت فى أصل الجحيم أيضاً ، من الخوارق فهذا الذى أوجب لهم التكذيب .

فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة ؟ ! !

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم ؟ ! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم .

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح فى الكتاب والسنة ، بذكر الأمور العظيمة ، التى حدثت فى الأزمنة المتأخرة ، أولى وأحسن .

---

(١) استلج . أى : ألح » قال فى القاموس « واستلجه » : ألح فى شربه » اهـ . والمراد هنا : ثبتوا على كفرهم وتمسكوا به أشد التمسك واستلذوه استلذاذ العطشان فى ابتلاع أعذب المياه .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ

لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ، ربما لا تقبلها عقولهم ، فيكون ذلك ريبا فى قلوب بعض المؤمنين ، ومانعاً ، يمنع من لم يدخل الإسلام ، ومنفرا عنه .

بل ذكر الله ألفاظاً عامة ، تتناول جميع ما يكون ، والله أعلم .

[ونخوفهم بالآيات فما يزيدهم] التخويف [إلا طغيانا كبيرا] وهذا أبلغ ما يكون فى التحلى بالشر ومحبته ، وبغض الخير وعدم الانقياد له .

* ينبه تبارك وتعالى عباده ، على شدة عداوة الشيطان ، وحرصه على إضلالهم ، وأنه لما خلق الله آدم ، استكبر عن السجود له ، و [قال] متكبراً :

[أأسجد لمن خلقت طينا] أى من طين ، وبزعمه ، أنه خير منه ، لأنه خلق من نار .

وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل ، من عدة أوجه .

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم [قال] مخاطباً لله :

[أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيمة لاحتنكن ذريته] أى : لأستأصلنهم بالإضلال ، ولأغوينهم [إلا قليلا] عرف الخبيث ، أنه لابد أن يكون منهم من يعاديه ، ويعصيه .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ

فقال الله له : [اذهب فمن تبعك منهم] واختارك على ربه ووليه الحق .

[فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا] أى : مدخرا لكم ، موفرا جزاء أعمالكم .

ثم أمره الله أن يفعل كل مايقدر عليه من إضلالهم فقال :

[واستفزز[1] من استطعت منهم بصوتك] ويدخل فى هذا كل داع إلى المعصية .

[وأجلب[2] عليهم بخيلك ورجلك] ويدخل فيه كل راكب وماش فى معصية الله ، فهو من خيل الشيطان ورجله .

---

(١) واستفزز . أى : أزعج ، واستخف حتى يتبعك طائشاً منجرفاً وراءك .

(٢) وأجلب عليهم . أى : صح بهم واستحثهم بخيلك ورجالك للسبق إلى متابعتك بقهر وإجبار قال الراغب فى معجم مفردات القرآن « وأجلبت عليه: صحت عليه بقهر قال الله تعالى: وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » اهـ .

وفى المختار من الصحاح وجلب على فرسه يجلبه جلباً بوزن يطلبه طلباً صاح به من خلفه واستحثه للسبق . وكذا أجلب عليه . اهـ .

وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين ، الداعى لهم إلى معصية الله ، بأقواله وأفعاله .

[وشاركهم فى الأموال والأولاد] وذلك شامل لكل معصية ، تعلقت بأموالهم وأولادهم ، من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد ، وتربيتهم على الخير ، وترك الشر ، وأخذ الأموال بغير حقها ، أو وضعها بغير حقها ، أو استعمال المكاسب الردية .

بل ذكر كثير من المفسرين ، أنه يدخل فى مشاركة الشيطان فى الأموال والأولاد ، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع .

وأنه إذا لم يسم الله فى ذلك ، شارك فيه الشيطان ، كما ورد فيه الحديث .

[وعدهم] الوعود المزخرفة التى لا حقيقة لها ، ولهذا قال :

[وما يعدهم الشيطان إلا غروراً] أى : باطلا مضمحلا ، كأن يزين لهم المعاصى والعقائد الفاسدة ، ويعدهم عليها الأجر ، لأنهم يظنون أنهم على الحق .

وقال تعالى : « الشيطان ، يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » .

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد ، وذكر ما يعتصم به من فتنته ، وهو عبودية الله ، والقيام بالإيمان والتوكل قال :

[إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] أى : تسلط وإغواء ، بل الله

سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ

يدفع عنهم — بقيامهم بعبوديته — كل شر ، ويحفظهم من الشيطان الرجيم ، ويقوم بكفايتهم .

[وكفى بربك وكيلا] لمن توكل عليه ، وأدى ما أمر به .

* يذكر تعالى : نعمته على العباد ، بما سخر لهم من الفلك ، والسفن ، والمراكب ، وألهمهم كيفية صنعتها .

وسخر لها البحر الملتطم ، يحملها على ظهره ، لينتفع العباد بها فى الركوب والحمل للأمتعة ، والتجارة .

وهذا من رحمته بعباده ، فإنه لم يزل بهم رحيما رءوفاً ، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم .

ومن رحمته الدالة على أنه ، وحده المعبود ، دون ما سواه ، أنهم إذا مسهم الضر فى البحر ، نخافوا من الهلاك ، لتراكم الأمواج ، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله ، فى حال الرخاء من الأحياء ، والأموات ، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم فى وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء ، عاجزون عن كشف الضر ، وصرخوا[1] بدعوة فاطر الأرض والسموات ،

---

(١) قوله « وصرخوا الخ » أقول — والأسف يقطع نياط القلب — إن مشركى زماننا فاقوا مشركى الجاهلية لأن مشركى زماننا يدعون غير الله فى الرخاء والشدة .

=

ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

الذى يستغيث به فى شدائدها،جميع المخلوقات ، وأخلصوا له الدعاء،والتضرع فى هذه الحال .

فلما كشف الله عنهم الضر ، ونجاهم إلى البر ، ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل ، أشركوا به ، من لاينفع ، ولا يضر ، ولايعطى ، ولايمنع ، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم .

وهذا من جهل الإنسان وكفره ، فإن الإنسان كفور للنعم .

إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم ، واهتدى إلى الصراط المستقيم .

= إليك القصة الآتية . أقلعت باخرة من بيروت تحمل رجالا وبضائع واصطخب الموج وهاج البحر هيجاناً شديدا ، وصارت الأمواج تتلاعب بالباخرة وبلغت القلوب الحناجر فأخذ البعض يقول : يا رفاعى والبعض الآخر : يا جيلانى ، وآخرون : يابدوى وهناك كان رجل شامى يستمع لنداء المنادين واستغاثاتهم وهو صامت فلم يسمع من أحد يقول « يا الله » فقال : اللهم أغرق أغرق مابقى أحد يعرفك فيذكرك » .

وهكذا اشتد الشرك فى هذا الزمان واستغلظ وتحقق قوله تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فتعلم التوحيد والتدقيق فيه وتعلم الشرك ووسائله والتدقيق قد أهمل فى جميع الأقطار ما عدا المملكة العربية السعودية صانها الله وزادها يقظة وتوفيقا .

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

فإنه يعلم ، أن الذى يكشف الشدائد ، وينجى من الأهوال ، هو الذى يستحق أن يفرد ، وتخلص له سائر الأعمال ، فى الشدة ، والرخاء ، واليسر والعسر .

وأما من خذل ، ووكل إلى عقله الضعيف ، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة ، وإنجاءه فى كل تلك الحال .

فلما حصلت له النجاة ، وزالت عنه المشقة ، ظن بجهله ، أنه قد أعجزالله ولم يخطر بقلبه ، شىء من العواقب الدنيوية ، فضلا عن أمور الآخرة .

ولهذا ذكرهم الله بقوله : [أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً] .

أى : فهو على كل شىء قدير ، إن شاء أنزل عليكم عذاباً ، من أسفل منكم بالخسف ، أو من فوقكم بالحاصب ، وهو : العذاب الذى يحصبهم ، فيصبحوا هالكين .

فلا تظنوا أن الهلاك لايكون إلا فى البحر .

وإن ظننتم ذلك ، فلستم آمنين من [أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح] أى : ريحا شديدة جداً تقصف ما أتت عليه .

[فيغرقكم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً] أى : تبعة ومطالبة ، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* وهذا من كرمه عليهم وإحسانه ، الذى لا يقادر قدره ، حيث كرم بنى آدم بجميع وجوه الإكرام .

فكرمهم بالعلم والعقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

وجعل منهم الأولياء والأصفياء ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

[وحملناهم فى البر] على الركاب ، من الإبل ، والبغال ، والحمير ، والمراكب البرية .

[والبحر] فى السفن والمراكب [ورزقناهم من الطيبات] من المآكل والمشارب ، والملابس ، والمناكح .

فما من طيب تتعلق به حوائجهم ، إلا وقد أكرمهم الله به ، ويسره لهم غاية التيسير .

[وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] بما خصهم به من المناقب ، وفضلهم به من الفضائل ، التى ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات .

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ، ودفع النقم ، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم ، بل ربما استعانوا بها على معاصيه .

﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة ، وأنه يدعو كل أناس ، ومعهم إمامهم وهاديهم ، إلى الرشد ، وهم : الرسل ونوابهم .

فتعرض كل أمة ، ويحضرها رسولهم الذى دعاهم .

وتعرض أعمالهم على الكتاب ، الذى يدعو إليه الرسول ، هل هى موافقة له أم لا ؟ فينقسمون بهذا قسمين .

[فمن أوتى كتابه بيمينه] لكونه اتبع إمامه ، الهادى إلى صراط مستقيم ، واهتدي بكتابه ، فكثرت حسناته ، وقلت سيئاته [فأولئك يقرأون كتابهم] قراءة سرور وبهجة ، على ما يرون فيها ، مما يفرحهم ويسرهم .

[ولا يظلمون فتيلا] مما عملوه من الحسنات .

[ومن كان فى هذه] الدنيا [أعمى] عن الحق ، فلم يقبله ، ولم ينقد له بل اتبع الضلال .

[فهو فى الآخرة أعمى] عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه فى الدنيا [وأضل سبيلا] فإن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان .

وفى هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها ، هل عملت به أم لا ؟

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ

وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبى ، لم يؤمروا باتباعه ، وأن الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد قيام الحجة عليه ، ومخالفته لها ، وأن أهل الخير ، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور ، شيء عظيم ، وأن أهل الشر بعكس ذلك ، لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم ، من شدة غمهم ، وحزنهم وثبورهم(١) .

* يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق ، فقال :

[وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره] أى : قد كادوا لك أمراً لم يدركوه ، وتحيلوا لك ، على أن تفترى على الله غير الذى أنزلنا إليك .

فتجىء بما يوافق أهواءهم ، وتدع ما أنزل الله إليك .

[وإذاً] لو فعلت ما يهوون [لاتخذوك خليلا] أى حبيباً صفياً ، أعز عليهم من أحبابهم ، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، المحببة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو .

---

(١) قال الراغب « الثبور » : الهلاك والفساد،وقال فى المختار من الصحاح : « الثبور : الهلاك والخسران.ا هـ .

فيكون المعنى : إن أهل الشر لا يقدرون على قراءة كتبهم من شدة حزنهم ومشاهدتهم لهلاكهم وخسرانهم .

لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك ، وينابذوك العداوة ، إلا للحق الذى جئت به ، لا لذاتك ، كما قال الله تعالى « قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

[و] مع هذا [لولا أن ثبتناك] على الحق ، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم .

[لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا] من كثرة المعالجة ، ومحبتك لهدايتهم .

[إذاً] لو ركنت إليهم بما يهوون [لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات] .

أى : لأصبناك بعذاب مضاعف ، فى الدنيا والآخرة ، وذلك لكمال نعمة الله عليك ، وكمال معرفتك .

[ثم لاتجد علينا نصيرا] ينقذك مما يحل بك من العذاب ، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر ، ومن الشر ، فثبتك وهداك الصراط المستقيم ، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه ، فله عليك ، أتم نعمة ، وأبلغ منحة .

[وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها] أى : من بغضهم لمقامك بين أظهرهم ، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ، ويجلوك عنها .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

ولو فعلوا ذلك ، لم يلبثوا بعدك إلا قليلا ، حتى تحل بهم العقوبة ، كما هى سنة الله التى لا تحول ولا تبدل فى جميع الأمم .

كل أمة كذبت رسولها ، وأخرجته ، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا ، وأخرجوه ، لم يلبثوا إلا قليلا ، حتى أوقع الله بهم بـ « بدر » وقتل صناديدهم ، وفض بيضتهم فله الحمد .

وفى هذه الآيات ، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه ، وأنه لايزال متملقاً لربه ، أن يثبته على الإيمان ، ساعياً فى كل سبب موصل إلى ذلك ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أكمل الخلق ، قال الله له :

[ولولا أن ثبتناك قد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا] فكيف بغيره ؟ ! !

وفيها تذكير الله لرسوله مِنَّتَهُ عليه ، وعصمته من الشر .

فدل ذلك ، على أن الله يحب من عباده ، أن يتفطنوا لإنعامه عليهم — عند وجود أسباب الشر — بالعصمة منه ، والثبات على الإيمان .

وفيها : أنه — بحسب علو مرتبة العبد ، وتواتر النعم عليه من الله يعظم ، إثمه ويتضاعف جرمه ، إذا فعل ما يلام عليه ، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل — وحاشاه من ذلك — بقوله :

[إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً] .

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة ، تضاعف جرمها ، وعظم وكبر ، فيحق عليها القول من الله ، فيوقع بها العقاب ، كما هى سنته فى الأمم ، إذا أخرجوا رسولهم .

* يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة تامة ، ظاهرا ، وباطنا فى أوقاتها .

[لدلوك الشمس] أى : ميلانها إلى الأفق الغربى بعد الزوال .

فيدخل فى ذلك ، صلاة الظهر ، وصلاة العصر .

[إلى غسق الليل] أى : ظلمته ، فدخل فى ذلك ، صلاة المغرب ، وصلاة العشاء .

[وقرآن الفجر] أى : صلاة الفجر ، وسميت قرآنا ، لمشروعية إطالة القرآن فيها ، أطول من غيرها ، ولفضل القراءة فيها ، حيث شهدها الله ، وملائكة الليل والنهار .

ففى هذه الآية ، ذكر الأوقات الخمسة ؛ للصلوات المكتوبات ، وأن الصلوات الموقعة فيه فرائض ، لتخصيصها بالأمر .

ومنها أن الوقت ، شرط لصحة الصلاة ، وأنه سبب لوجوبها لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات .

وأن الظهر والعصر ، يجمعان ، والمغرب والعشاء كذلك ، للعذر ، لأن الله جمع وقتهما جميعاً .

نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ

وفيه : فضيلة صلاة الفجر ، وفضيلة إطالة القراءة فيها ، وأن القراءة فيها ، ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها ، دل على فرضية ذلك .

وقوله [ومن الليل فتهجد به] أى : صل به فى سائر أوقاته .

[نافلة لك] أى : لتكون صلاة الليل ، زيادة لك فى علو القدر ، ورفع الدرجات .

بخلاف غيرك ، فإنها تكون كفارة لسيئاته .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن الصلوات الخمس فرض عليك ، وعلى المؤمنين .

بخلاف صلاة الليل ، فإنها فرض عليك بالخصوص ، ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك ، وليكثر ثوابك ، وتنال بذلك ، المقام المحمود ، وهو المقام الذى ، يحمدك فيه ، الأولون والآخرون ، مقام الشفاعة العظمى ، حين يتشفع الخلائق بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى .

وكلهم يعتذر ويتأخر عنها ، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ، ليرحمهم الله ، من هول الموقف ، وكربه .

فيشفع عند ربه ، فيشفعه ، ويقيمه مقاما ، يغبطه به ، الأولون والآخرون .

وتكون له المنة على جميع الخلق .

أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

وقوله : [وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق] أى : اجعل مداخلى ومخارجى كلها ، فى طاعتك ، وعلى مرضاتك ، وذلك لتضمنها الإخلاص ، وموافقتها الأمر .

[واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيرا] أى : حجة ظاهرة ، وبرهانا قاطعاً على جميع ما آتيه ، وما أذره .

وهذا أعلى حالة ، ينزلها الله العبد ، أن تكون أحواله كلها خيراً ، ومقربة له إلى ربه ، وأن يكون له — على كل حالة من أحواله — دليل ظاهر ، وذلك متضمن للعلم النافع ، والعمل الصالح ، للعلم بالمسائل والدلائل .

وقوله : [وقل جاء الحق وزهق الباطل] والحق هو : ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله أن يقول ويعلن ، قد جاء الحق الذى لا يقوم له شىء ، وزهق الباطل أى : اضمحل وتلاشى .

[إن الباطل كان زهوقا] أى : هذا وصف الباطل ، ولكنه قد يكون له صولة ورواج ، إذا لم يقابله الحق ، فعند مجىء الحق ، يضمحل الباطل ، فلا يبقى له حراك .

ولهذا لا يروج الباطل ، إلا فى الأزمان ، والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته وقوله : « وننزل من القرآن » إلى « إلا خساراً » .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

* أى : فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة .

وليس ذلك لكل أحد ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، المصدقين بآياته ، العاملين به .

وأما الظالمون بعدم التصديق به ، أو عدم العمل به ، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً .

إذ به تقوم عليهم الحجة .

فالشفاء الذى تضمنه القرآن ، عام لشفاء القلوب ، من الشبه ، والجهالة ، والآراء الفاسدة والانحراف السيء ، والقصود الرديئة .

فإنه مشتمل على العلم اليقين ، الذى تزول به كل شبهة وجهالة .

والوعظ والتذكير ، الذى يزول به كل شهوة ، تخالف أمر الله .

ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها .

وأما الرحمة ، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل ، التى يحث عليها ، متى فعلها العبد ، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية ، والثواب العاجل والآجل .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

هذه طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، إلا من هداه الله .

فإن الإنسان — عند إنعام الله عليه — يفرح بالنعم ، ويبطر بها ، ويعرض ، وينأى بجانبه عن ربه ، فلا يشكره ، ولا يذكره .

[وإذا مسه الشر] كالمرض ونحوه [كان يئوساً] من الخير ، قد قطع ربه رجاءه ، وظن أن ما هو فيه ، دائم أبداً .

وأما من هداه الله ، فإنه — عند النعم — يخضع لربه ، ويشكر نعمته ، وعند الضراء ، يتضرع ، ويرجو من الله عافيته ، وإزالة ما يقع فيه ، وبذلك يخف عليه البلاء .

* أى : [قل كل] من الناس [يعمل على شاكلته] أى : على ما يليق به من الأحوال .

إن كانوا من الصفوة الأبرار ، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين .

ومن كانوا من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم الا العمل للمخلوقين ، ولم يوافقهم الا ما وافق أغراضهم .

[فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا] فيعلم من يصلح للهداية ، فيهديه ، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

---

* وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل ، التى يقصد بها التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم ، فيسألون عن الروح ، التي هى من الأمور الخفية ، التى لا يتقن[1] وصفها وكيفيتها ، كل أحد ، وهم قاصرون فى العلم الذى يحتاج إليه العباد .

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يجيب سؤالهم بقوله:[قل الروح من أمر ربى] أى : من جملة مخلوقاته ، التى أمرها أن تكون فكانت .

فليس فى السؤال عنها ، كبير فائدة ، مع عدم علمكم بغيرها .

وفى هذه[2] الآية دليل ، على أن المسئول إذا سئل عن أمر ، الأولى به

---

(١) « لا يتقن الخ » الصواب أن يقال : إن الروح من الأمور الخفيه التى لا يعلم حقيقتها ، ووصفها إلا الله » لأن قوله « لا يتقن وصفها كل أحد » يوهم أن بعض الناس يتقن وصفها ، والواقع أن جميع الخلق متساوون فى جهالتهم لحقيقة الروح ووصفها .

(٢) فى الأصل المطبوع « وفى هذه الآية دليل على السؤال إذا سئل عن أمر ، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه ويدل على ما يحتاج إليه ويرشده إلى ما ينفعه » وهو تعبير لا يدل على المقصود . وفيه ركاكة فى التعبير وعدم انسجام فى الأسلوب ولذلك أصلحنا العبارة كما ترى ليكون المعنى واضحاً .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

أن يعرض عن إجابة السائل عما سأل عنه ، ويدله على ما يحتاج إليه ، ويرشده إلى ما ينفعه .

* يخبر تعالى أن القرآن والوحي ، الذي أوحاه إلى رسوله ، رحمة منه عليه ، وعلى عباده ، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله ، فإن فضل الله عليه كبير ، لا يقادر قدره .

فالذي تفضل به عليك ، قادر على أن يذهب به ، ثم لا تجد راداً يرده ، ولا وكيلا يتوجه عند الله فيه .

فَلْتَغْتَبِطْ به ، وَلْتَقَرَّ به عينك ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين ، ولا استهزاء الضالين .

فإنهم عرضت عليهم أَجَلُّ النعم ، فردوها ، لهوانهم على الله ، وخذلانه [1] لهم .

---

(١) الصواب أن يقال وخذلانه إياهم لأن « خذل » يتعدى بنفسه لا باللام فيقال « خذل الله الكافر » ولا يقال « خذل الله للكافر » .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

---

* وهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه .

حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه .

ووقع كما أخبر الله ، فإن دواعي أعدائه المكذبين به ، متوفرة على رد ما جاء به ، بأي وجه كان ، وهم أهل اللسان والفصاحة .

فلو كان عندهم أدنى تأهل ، وتمكن من ذلك ، لفعلوه .

فعلم بذلك ، أنهم أذعنوا غاية الإذعان ، طوعا وكرها ، وعجزوا عن معارضته .

وكيف يقدر المخلوق من تراب ، الناقص من جميع الوجوه ، الذي ليس له علم ، ولا قدرة ، ولا إرادة ، ولا مشيئة ، ولا كلام ولا كمال ، إلا من ربه أن يعارض كلام رب الأرض والسموات ، المطلع على سائر الخفيات ، الذي له الكمال المطلق ، والحمد المطلق ، والمجد العظيم ، الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا ، والأشجار كلها أقلام ، لنفذ المداد ، وفنيت الأقلام ، ولم تنفد كلمات الله .

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ، مماثلا لله في أوصافه ، فكلامه من أوصافه ، التي لا يماثله فيها أحد .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ

فليس كمثله شيء، فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله تبارك وتعالى .

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق ، وزعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، افتراه على الله واختلقه من نفسه .

* يقول تعالى : [ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل] أى : نوعنا فيه المواعظ والأمثال ، وثنينا فيه المعانى ، التى يضطر إليها العباد ، لأجل أن يتذكروا ويتقوا .

فلم يتذكر إلا القليل منهم ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة ، وأعانهم الله بتوفيقه .

وأما أكثر الناس ، فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة ، التى هى أكبر من جميع النعم ، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات ، غير آياته ، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة .

فيقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية :

[لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا] أى أنهارا جارية .

[أو تكون لك جنة من نخيل وعنب] فتستغنى بها عن المشى فى الأسواق والذهاب والمجيء .

وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ

[أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً] أي : قطعاً من العذاب .

[أو تأتى بالله والملائكة قبيلا] أى جميعاً ، أو مقابلة ومعاينة ، يشهدون لك بما جئت به .

[أو يكون لك بيت من زخرف] أى : مزخرف بالذهب وغيره .

[أو ترق فى السماء] رقياً حسيا .

[و] مع هذا [لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه] .

ولما كانت هذه تعنتات ، وتعجيزات ، وكلام أسفه الناس وأظلمهم ، المتضمنة لرد الحق ، وسوء أدب مع الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذى يأتى بالآيات — أمره الله أن ينزهه فقال :

[قل سبحان ربى] عما تقولون علوا كبيرا ، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الضالة .

[هل كنت إلا بشراً رسولا] ليس بيده شىء من الأمر .

وهذا السبب ، الذى منع أكثر الناس من الإيمان ، حيث كانت الرسل ، التى ترسل إليهم من جنسهم بشراً .

ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

وهذا من رحمته بهم ، أن أرسل إليهم بشراً منهم ، فإنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة .

[قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين] يثبتون على رؤية الملائكة ، والتلقى عنهم [لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا] ليمكنهم التلقى عنه .

[قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا] .

فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات ، وما أنزل عليه من الآيات ، ونصره على من عاداه وناوأه .

فلو تقوّل عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .

فإنه خبير بصير ، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية .

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ

---

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال .

فمن يهده ، فييسره لليسرى ويجنبه العسرى ، فهو المهتدى على الحقيقة .

ومن يضلله ، فيخذله ، ويكله إلى نفسه ، فلا هادى له من دون الله .

وليس له ولى ينصره من عذاب الله ، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيا ، عميا ، وبكما ، لا يبصرون ، ولا ينطقون .

[مأواهم] أى مقرهم ودارهم [جهنم] التى جمعت كل هم ، وغم ، وعذاب .

[كلما خبت] أى : تهيأت للانطفاء [زدناهم سعيراً] أى : سعرناها[1] بهم لا يُفَتَّر[2] عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولم يظلمهم الله تعالى بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذى أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته .

---

(١) سعرناها أى : زدناها التهابا واشتعالا .

(٢) لا يفتر : أى لا يضعف قوة العذاب ولا ينكسر حدة ألمه قال الراغب « الفتور : سكون بعد حدة ، ولين بعد شدة ، وضعف بعد قوة » وفى المختار من الصحاح « الفترة الانكسار والضعف » وفى القاموس « فَتَر يفتُر ويفتِر فُتورا وفُتَاراً : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة » .

جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

[وقالوا أإذا كنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً] أى : لا يكون هذا لأنه فى غاية البعد عن عقولهم الفاسدة .

[أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض] وهى أكبر من خلق الناس .

[قادر على أن يخلق مثلهم] بلى ، إنه على ذلك قدير .

[و] لـكنه قد [جعل لهم أجلا لا ريب فيه] ولا شك ، وإلا فلوشاء لجاءهم به بغتة ، ومع إقامته الحجج والأدلة على البعث .

[فأبى الظالمون إلا كفوراً] ظلما منهم وافتراء .

[قل لو أنتم تملـكون خزائن رحمة ربى] التى لا تنفد ولا تبيد .

[إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق] أى : خشية أن ينفد ما تنفقون منه ، مع أنه من المحال أن تنفد خزائن الله ، ولـكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل .

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ

---

* أى : لست أيها الرسول المؤيد بالآيات ، أول رسول كذبه الناس .

فلقد أرسلنا قبلك ، موسى بن عمران الكليم ، إلى فرعون وقومه ، وآتيناه [تسع آيات بينات] كل واحدة منها ، تكفى لمن قصده اتباع الحق كالحية ، والعصا ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، واليد ، وفلق البحر .

فإن شككت فى شىء من ذلك [فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال فرعون] مع هذه الآيات [إنى لأظنك ياموسى مسحوراً] .

[قال] له موسى [لقد علمت] يافرعون [ما أنزل هؤلاء] الآيات [إلا رب السموات والأرض بصائر] منه لعباده ، فليس قولك هذا ، بالحقيقة ، وإنما قلت ذلك ، ترويجاً على قومك ، واستخفافا لهم .

[وإنى لأظنك يافرعون مثبورا[1]] أى ممقوتا ملقى فى العذاب لك والذم واللعنة .

---

(١) قوله مثبوراً . أى : ناقص العقل قال الراغب : وقوله تعالى [وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى ناقص العقل ونقصان العقل أعظم هُلْك » اهـ .

أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

[فأراد] فرعون [أن يستفزهم من الأرض] أى: يجليهم ويخرجهم منها.

[فأغرقناه ومن معه جميعاً] وأورثنا بنى إسرائيل أرضهم وديارهم .

ولهذا قال : [وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً] أى : جميعاً ، ليجازى كل عامل بعمله .

* أى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم ، لأمر العباد ، ونهيهم ، وثوابهم ، وعقابهم .

[وبالحق نزل] أى : بالصدق والعدل ، والحفظ من كل شيطان رجيم .

[وما أرسلناك إلا مبشراً] من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل .

[ونذيراً] لمن عصى الله ، بالعقاب العاجل والآجل .

ويلزم من ذلك ، بيان ما يبشر به وينذر .

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

---

* أى : وأنزلنا هذا القرآن مفرقاً ، فارقا بين الهدى والضلال ، والحق والباطل .

[لتقرأه على الناس على مكث] أى : على مهل ، ليتدبروه ، ويتفكروا فى معانيه ، ويستخرجوا علومه .

[ونزلناه تنزيلا] أى : شيئاً فشيئاً ، مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة .

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

فإذا تبين أنه الحق ، الذى لا شك فيه ولا ريب ، بوجه من الوجوه .

[قل] لمن كذب به ، وأعرض عنه : [آمنوا به أو لا تؤمنوا] .

فليس لله حاجة فيكم ، ولستم بضاريه شيئا ، وإنما ضرر ذلك عليكم .

فإن لله عبادا غيركم ، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع : [إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً] أى : يتأثرون به غاية التأثر ، ويخضعون له .

[ويقولون سبحان ربنا] عما لا يليق بجلاله ، مما نسبه إليه المشركون.

[إن كان وعد ربنا] بالبعث والجزاء بالأعمال [لمفعولا] لا خُلْفَ فيه ولا شك .

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ

[ويخرون للأذقان] أي : على وجوههم [يبكون ويزيدهم] القرآن [خشوعا] .

وهؤلاء كالذين مَنَّ الله عليهم من مؤمنى أهل الكتاب كعبدالله ابن سلام وغيره ، ممن أسلم فى وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك .

* يقول تعالى لعباده : [ادعوا الله أو ادعوا الرحمن] أى: أيهما شئتم .

[أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى] أى : ليس له اسم غير حسن ، أى : حتى ينهى عن دعائه به ، أى اسم دعوتموه به ، حصل به المقصود ، والذى ينبغى أن يدعى فى كل مطلوب ، مما يناسب ذلك الاسم .

[ولا تجهر بصلاتك] أى : قراءتك [ولا تخافت بها] فإن فى كل من الأمرين محذورا .

أما الجهر ، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه ، سبوه ، وسبوا من جاء به .

وأما المخافتة ، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء .

[وابتغ بين ذلك] أى : اتخذ بين الجهر والإخفات [سبيلا] أى : تتوسط فيما بينهما .

[وقل الحمد لله] الذى له الكمال ، والثناء ، والحمد ، والمجد من جميع الوجوه ، المنزه عن كل آفة ونقص .

يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

[الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك] بل الملك كله لله الواحد القهار .

فالعالم العلوى والسفلى ، كلهم مملوكون لله ، ليس لأحد من الملك شيء .

[ولم يكن له ولى من الذل] أى : لا يتولى أحدا من خلقه ، ليتعزز به ويعاونه .

فإنه الغنى الحميد ، الذى لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات ، فى الأرض ولا فى السماوات ، ولكنه يتخذ — إحسانا منه إليهم ورحمة بهم « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

[وكبره تكبيرا] أى عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة ، وبالثناء عليه ، بأسمائه الحسنى ، وبتحميده بأفعاله المقدسة ، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده ، لا شريك له ، وإخلاص الدين كله له .

تم تفسير سورة الإسراء

. . . .

وبلغ مقابلة على أصله ولله الحمد والمنة والثناء الحسن

على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدى

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين

وصلى الله على محمد وسلم تسليما كثيرا

وذلك فى ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤

ونقله من خط المؤلف الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه إن شاء الله الجزء الخامس

وأوله تفسير سورة الكهف

فهرس

الجزء الرابع

صفحة